معارضة الدعوة الإسلامية في العهد المكي وكيفية مواجهتها

د. أسامة أبو زيد علي أبو زيد (*)

مقدمة

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستهديه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. وبعد

فدعوة الإسلام لم تعالج انحرافاً احتاج إلى ترقيع؛ بل أقامت ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فبثت الخير للناس، وحملت الحق للعالم أجمع، ولم تكن عملية بنائها وتكوينها مفروشة بالورود والرياحين، وإنما عقبات وشدائد وابتلاءات حتى جاء وعد الله واشتد عود حملتها ودعاتها.

ومحمد ﷺ بدأ دعوته بمكة مركز دين العرب، وسدنة الكعبة القوّام على الأوثان والأصنام المقدسة عندهم، مدة ثلاث عشرة سنة، صَاحَب ذلك اعتراض قاسٍ ممنهج له ولأصحابه، فبحث عن مكان ليبلغ دعوته فكانت الهجرة، وطرق المعارضة وسبل مواجهتها عملية بناء، أبانت مقدار الجهد والعناء، والصبر التي تحملها الصحابة ﷺ وقاوموها بخطىً تسلم كل لتاليتها ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهذه دراسة لجانب من تاريخ الدعوة، للاستفادة منه والتعرف على أساليب الدعوة، ووسائلها ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، واستشعار لمشقة التبليغ التي واجهت الجيل الذي نشر العدل في أرجاء الأرض، وعلّم العقيدة والعبادة والأخلاق الحميدة، وبيان لطبيعة الصراع مع الباطل ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ ﴾ [الفرقان: ٣١] ومعرفة عوامل النهوض، والتنبه لأسباب السقوط، فمواجهته ﷺ لأساليب المعارضين، تؤصل منهج إدارة صراع الحق مع الباطل, والتغلب عليها، مع الالتزام بشروط النصر وأسبابه التي أرشد إليها الله ﷻ في كتابه الكريم.

والتمكين منوط بمتابعته ﷺ لقيامه وأصحابه ﷺ بشروط التمكين، وأخذهم بأسبابه المادية والمعنوية, حتى انتشر الإسلام بين شعوب الأرض، وأسأل الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا نافعًا، آمين.

(*) الأستاذ المساعد بقسم الشريعة الإسلامية - كلية الشريعة - جامعة جازان.

تمهيـــــد

أولاً: تعريف مفردات العنوان:

معارضة: عرض الشيء جعله عريضا ونصبه بالعرض، وعرض لكذا جعله هدفاً له، اعترض صار عارضاً كالخشبة في النهر أو الطريق، واعترض له منعه، وعليه أنكر قوله أو فعله، وله بشيء أقبل نحوه فرماه به، وتعارضا: عارض أحدهما الآخر، وتعرّض: تصدى[١]، وعارض فلانًا معارضة: جانبه وعدل عنه، وناقضه في الكلام والرأي[٢].

وهي: إقامة الدليل على خلاف ما أقام عليه الخصم الدليل، ودليل المعارض إن كان عين دليل المعلل تسمى قلبا وإن كانت صورته كصورته تسمى معارضة بالمثل وإلا فمعارضة بالغير[٣]. ومقصود البحث اظهار النوع الأخير منها.

الدعوة: من الدعاء، وهو النداء لجمع الناس على أمر ما، وحثهم على العمل له، أو قضية يراد إثباتها أو الدفاع عنها حقاً أم باطلاً، ومن معانيها: المحاولة القولية أو الفعلية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة، والابتهال والسؤال[٤].

العهد المكي: دعوة الإسلام بعد أن شرف الله محمداً ﷺ بالرسالة عهدين مكي ومدني، المكي: مدة الدعوة من نزول الوحي إلى هجرته ﷺ، اتصل فيها بالفئات المستقرة بمكة أو القادمة إليها في شتى المناسبات.

الكيفية: مصدر صناعي لكَيْف، زيد عليها ياء النسب وتاء للنقل من الاسمية إلى المصدرية، وكيفية الشيء حاله وصفته، إن اختصت بذوات الأنفس تسمى كيفية نفسانية كالعلم والحياة، وإن كانت راسخة في موضعها تسمى ملكة، وإلا سميت حالا في ابتدائها، فإذا استحكمت صارت ملكة[٥].

المواجهة: واجهه مواجهة ووجاها، قابل وجهه بوجهه واستقبله بكلام أو وجه، توجه ولى وجهه إليه، واتجه إليه أقبل بوجهه عليه، تواجها تقابلا، الجهة الجانب والناحية والموضع الذي تتوجه إليه وتقصده[٦].

ومراد عنوان البحث: بيان طرق وأساليب منع تبليغ الدعوة وانتشارها في الفترة المكية، وكيف تصدى لها رسول الله ﷺ وأصحابه حتى نجحت الدعوة وبدأ قيام دولة المدينة المنورة.

---

(١) المعجم الوسيط ص ٥٩٤ ، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة.
(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد ٦٤ / ٦٠.
(٣) التعريفات ص: ٢٨١ علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي بيروت، ط الأولى ، ١٤٠٥هـ، تحقيق: إبراهيم الابياري.
(٤) لسان العرب ١/ ٩٨٧ محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت ط الأولى.
(٥) تاج العروس من جواهر القاموس ٢٤ / ٣٥٣ محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية، المعجم الوسيط ص : ٨٠٧.
(٦) المعجم الوسيط ص : ١٠١٥.

الدراسات السابقة: توجد عدة دراسات قريبة الارتباط من بعض الوجوه منها:
١. منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في خلال الفترة المكية، د. الطيب برغوث، ومنهج المحافظة يختلف عن المعارضة والمواجهة جزء من المنهج لكن ليست المنهج، ومنهج المحافظة لا يستلزم وجود معارضة لكل جوانبه.
٢. الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، د. رؤف شلبي، وقد ركز على المنهج والغاية، بخلاف طرق المعارضة.
٣. أساليب المشركين في الصد عن الدعوة في العهد المكي ومظاهرها في العهد الحاضر، د. حمزة بن سليمان الطيار، وركز فيه على الأساليب القولية والعملية، والدراسة مختلفة من حيث العرض والتناول، وإن كان فيها تشابه من بعض الجهات.
منهج البحث: استخدم الباحث المنهج الاستردادي، والوصفي، والتحليلي.
هدف البحث: التأصيل لموضوع في فترة من عمر الدعوة - ثلاث عشرة سنة - واستخراج دروس يمكن أن تكون منهجاً للدعاة، وربطها بالواقع المعاصر في بعض المواضع، وتأكيد صلاحه لكل زمان ومكان.

ثانياً: المعارضون للدعوة:

من عمل على إعاقة الدعوة بمكة دون نظر لعقيدته[١] الأصناف الآتية:

أ - السادة والأشراف " الملأ[٢] ":

طليعتهم رؤساء القبائل والكل تبع لهم سلماً وحرباً، فسيد القبيلة إذا غضب تبعوه لا يُسأل فيم غضب، يليهم الأشراف والأغنياء المترفون، يأمرون فيُطاعون، ويسنّون فيُتبعون، كلمتهم فاصلة في القضايا العامة، وامتلأت نفوسهم بحب المال والجاه، وأُشربت كُره الإسلام فرفضوا الدعوة وسعوا أن يرفضها الناس، ووقفوا بما أوتوا من قوة ونفوذ لإعاقة انتشارها، وتجاوز أغلبهم الكلام فأوقعوا بالمسلمين الإيذاء والتعذيب، كبراً وغروراً، فكانت قلوبهم حجارة أو أشد، ولم تصغ إلى كلمة الحق، ولم يسمحوا لها أن تطرق آذانهم

---

(١) قسم الشهرستاني معطلة العرب أصنافاً ثلاثة: ١- منكرو الخالق والبعث والإعادة. ٢- منكرو البعث والإعادة. ٣- منكرو الرسل. [الملل والنحل ٢ / ٢٣٤، ٢٣٥، دار المعرفة - بيروت ، ١٤٠٤تحقيق: محمد سيد كيلاني] .

(٢) الملأ: الرؤساء، سموا بذلك لأنهم مِلاء بما يُحتاج إليه. وقيل: أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم، ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم. وملأ بني فلان: ساداتهم. والجمع: أملاء. [لسان العرب: ١ / ١٥٣ - ١٥٥]، قال ﷺ " أولئك الملأ من قريش" [البخاري في الجزية، ومسلم في الجهاد ٣ / ٢٢٩، وأحمد في المسند ١ / ٣٩٣ ٧، ٤١٧].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]

ب ـ الجاليات الأجنبية "أهل الكتاب":

تبين آيات القرآن المكي وجود جالية كتابية بمكة، بعضهم كان موضع علم واستفتاء[١] ﴿ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧] ومنهم من آمن ومنهم من كفر فعرفوا الحق وكتموه، ولبسوا به الباطل، وود كثير منهم لو يردوا المؤمنين عن إيمانهم، حسداً من عند أنفسهم بعدما تبين لهم الحق، وجادلوا بأسئلة تعنت طلبوا من المشركين أن يسألوا عنها رسول الله، وربما قالوا: محمد مبعوث لكن لغيرنا.

ج. الأتباع والضعفاء:

العوام الذين انقادوا للسادة وساروا في ركابهم، وأمَّنوا على كلماتهم، وأطاعوهم فيما أمروا وصدقوهم فيما كذبوا وافتروا، ولم يردوا عليهم، أو يعترضوا كلامهم ويناقشوهم فيما ادعوا، بل أصمّوا آذانهم وأعرضوا وأدبروا واستكبروا كساداتهم، وقلة منهم ظلت صامتة تنتظر ما تسفر عنه الأيام والليالي ، وأخلصوا لقريش وقاتلوا في صفوفها، ونظرة في قتلى وأسرى بدر تعطي دلالة على مقدار مشاركتهم، وتحملهم الكثير من الخسائر.

دوافع اختيار هذا الموضوع متعددة منها:

قرأ الباحث منذ فترة كتابي منهج النبي في حماية الدعوة في عدها المكي، والدعوة الإسلامية في عهدها المكي فتولدت فكرة اختيار هذا الموضوع.

- وضوح محاولات أعداء الإسلام ـ قديما وحديثا ـ عرقلة مسيرة الدعوة الإسلامية، وعملهم على إيجاد الفرقة والاختلاف بين أبناء هذه الأمة.

- حاجة الباحث للتعرف على طرق المعارضة والوقوف على المنهج الصحيح لمواجهتها، وبيان منهج التعامل مع شبهات واعتراضات أعداء الدعوة الإسلامية.

- حق الدعوة على الباحثين أن يؤصلوا لها عامة، ولتاريخ علم الدعوة خاصة، وهذا البحث يؤصل في مرحلة من أهم مراحلها.

---

(١)عيصى الراهب كان يقول: يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة، تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته، فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيصى فناداه فقال من هذا؟ قال: أنا عبد المطلب فأشرف عليه، فقال: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم به عنه [الخصائص الكبرى ص: ٨٦ جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، السيرة الحلبية ١ / ١١٣ علي بن برهان الدين الحلبي دار المعرفة بيروت ١٤٠٠هـ].

الفصل الأول: أسباب معارضة الدعوة في العهد المكي

لم تكن معارضتهم الدعوة اعتقادا ببطلانها، أو تكذيباً لمن صدع بها، وإنما تجمعت أسباب مرجعها الشهوات والشبهات وإجمالها يتمثل في الآتي:

المبحث الأول: العناد والعصبية:

يؤديان للتهلكة والبعد عن الحق: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦]، وغالب البيئة آنذاك قام على صراع الزعامات والقبائل، وصعُب على الأكثرية الانقياد لمن رأوه دونهم مكانة، والعصبية بحسب غرضها الذي اعتمدت عليه، عصبية الجنس واللون، أو اللغة والمذهب والوطن، وهي من أشد الأسباب لاستحواذها على كيان السادة والأتباع، بل وأهل الكتاب فألغيت العقول وساروا معها ولو كانت خطأ واضحاً، أو ظلماً فاحشاً، فلسفة ذلك ما جاء قول دريد[١]:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقال قريط بن أنيف:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا[٢].

واستمع أبو جهل والأخنس بن شريق، وأبو سفيان، قراءة الرسول ﷺ القرآن ثلاث ليال متتالية وعاندوا رغم وضوح الحق[٣]، وعاند أبو جهل وتعصب يوم بدر لما قال له ابن مسعود ﷺ: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وهل فوق رجل قتله قومه؟[٤].

المبحث الثاني: اتباع الهوى:

هو السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي، أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل أو الرجوع إلى دليل أو تحكيم شرع وتقدير لعاقبة، وهو قاصمة تصمّ الآذان عن سماع الحق، وتعمي الأبصار والبصائر عن رؤيته واتباعه، وعقبة واجهت الدعوة الإسلامية قديما وحديثا.

---

(١) دريد بن الصمة البكري، سيد بني جشم، غزا مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها. عاش حتى سقط حاجباه، أدرك الاسلام، ولم يسلم، قتل يوم حنين [الأعلام للزركلي ٢/ ٣٣٩].

(٢) قريط بن أنيف العنبري التميمي، شاعر جاهلي، أغار بنو شيبان عليه ونهبوا ثلاثين من إبله، فاستغاث ببني مازن بن الأزد فأجابوا طلبه أبياته [الأعلام للزركلي ٥ / ١٩٥].

(٣) قال أبو جهل للمغيرة: والله إني لأعلم، أن ما يقول حق ولكن بني قصي، قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا القِرى، فقلنا: نعم، ثم قالوا فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا فينا السقاية، فقلنا نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي والله لا أفعل [مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٩١، رقم " ٣٦٩٧٩" الدار السلفية الهندية، صحيح السيرة النبوية ص: ١٦٢، محمد ناصر الألباني، المكتبة الإسلامية - عمان/ الأردن الأولى].

(٤) السيرة ابن كثير ٢/ ٤٤٣، السيرة ابن هشام ٣/ ١٨٤، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل١٤١١هـ بيروت، والمعنى ليس علي عار.

المتبع لهواه يكبر عليه طاعة غيره، فهَوَاه تمكن من قلبه، وملك عليه أقطار نفسه، فصار أسيراً لديه فدفعه إلى الغرور والتكبر، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فإما طاعة ربه، أو طاعة نفسه وهواه، وهو لا يطيع ربه، فلم يبق إلا الأخرى[١]، وما انتكس الوليد بن عتبة وغيره إلا لاتباعهم للهوى وجبرية العادات قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ ﴾ [النجم: ٢٣] .

المبحث الثالث: محاكاة السابقين وتقليدهم:

تقليد الآباء[٢] من أقوى أسباب المعارضة، فلم يكن لديهم عمق علمي، أو استدلال يدعو لرفضها ومحاربتها، فانحرفوا عن قائلين ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٩ – ٧٠] قال ابن كثير: (إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك)[٣].

وقادهم التقليد إلى مسالك الغواية والضلال، فبذريعته بقى المشرك على شركه، واليهودي والنصراني على يهوديته ونصرانيته، وبه تمسك أبو طالب حتى مات، مع أنه أزر رسول الله ﷺ ووقف إلى جانبه وهو القائل:

وعرضت دينا قد عرفت بأنه ** من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حِذار مسبة ** لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً[٤]

المبحث الرابع: الانقياد للسادة والزعماء:

خضوع العامة للسادة ومحاكاتهم، أسوأ من حال السادة لأنهم باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم فلم تغن عنهم شيئاً، ونعى الله عليهم ذلك فقال: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧]. قال قتادة: نزلت في اثني عشر رجلاً، هم المطعمون يوم بدر[٥]، والأظهر عموم القادة ورؤساء الضلال، الذين

(١) آفات على الطريق٢/ ١٥ – ٢١ د. سيد محمد نوح، دار الوفاء مصر ط الثانية.
(٢) مأخوذ من وضع القلادة في العنق واصطلاحاً: الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه [جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ٢ / ٢٣٣ تحقيق: فواز زمرلي، مؤسسة الريان - دار ابن حزم ط الأولى ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م] والمذموم تقليد الباطل، أما التقليد في الحق فاتباع لا تقليد.
(٣) التفسير ٣/ ٢١١، تحقيق سامي محمد سلامة دار طيبة، ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
(٤) مختصر السيرة ابن عبدالوهاب ص:٩٢، مطابع الرياض.
(٥) الحارث بن عامر بن نوفل، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة; ومن بني أسد: زمعة بن الأسود بن المطلب، ونوفل بن خويلد بن العدوية، ومن بني مخزوم أبو جهل، ومن بني جمح أمية بن خلف، ومن بني سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج [مغازي الواقدي١/ ، ١٤٤].

امتثل الأتباع أمرهم واقتدوا بهم، قال طاووس: سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني العلماء، والمعنى: اتبعنا الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئا، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء[1].

قال ابن القيم: الذين يقولون: هؤلاء ساداتنا وكبراؤنا وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه، ولنا أسوة بهم ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم، ولو كان حقا لكانوا هم أهله وأولى بقبوله، هؤلاء بمنزلة الدواب والأنعام، يساقون حيث يسوقهم راعيهم، وهم الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧][2].

المبحث الخامس: حب الزعامة والرياسة:

الشهوة الخفية وأقوى سبب نفسي لمعارضة الدعوة، قال الفضيل: ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير[3].

حبُ الرياسةِ داءٌ لا دواءَ له ... وقلما تجدُ الراضين بالقسم

هذه الشهوة أعمتهم عن الحق، وأنستهم وقائع الدهر، فالإسلام الجميع فيه سواء إلا من رفعه دينه وتقواه، وهو ما رفضه أصحاب السلطان والجاه الزائف، خوفاً من ذهابه عنهم، وظناً أنه أتى يسلبهم مكانتهم ورئاستهم، فعارضوا بما استطاعوا من أباطيل: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [سورة ص: ٦]. والمعنى إنما يريد محمد ﷺ بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد فاحذروا أن تطيعوه"، وقالوا إن الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه[4]، مدّعين أنهم أصحاب الرأي الحق والأمر الرَشَد ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١]، ودليل هذه الشهوة أنه لما أحرز أبو سفيان العير قبل غزوة بدر أرسل إلى قريش أن ارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٤٨ الإمام القرطبي، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ط: ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م تفسير ابن كثير٦ / ٤٨٤، التحرير والتنوير٢٢ / ١١٨محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس- ١٩٩٧م.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص: ٢٧، دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧١.

(٤) تفسير القرطبي ١٥/١٥١، ١٥٢، تفسير ابن كثير ٧ / ٥٣.

عليه ثلاثة أيام فلا بد أن ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان - أي تضرب بالمعازف والملاهي-، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها[١]، فلغة هذه النفوس الأنا والزعامة ليس أكثر.

المبحث السادس: الكبر والغرور:

منطقهم كيف يصيروا أتباعاً لرجل فقير، ويجلسون مع مواليهم؟! وهم الكبراء ذوي المال والثراء فقالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١][٢]، وخافوا أن تقول فتيات قريش أسلموا وصاروا أتباعاً ليتيم أبي طالب، يجلسون إلى مواليهم، بعد أن كانوا السادة أصحاب السطوة والنفوذ! فاشترطوا أن يخصص لهم النبي ﷺ مجلساً لا يحضره الضعفاء.

عن سعد ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢][٣]. وظلت بقية هذا الكبر إلى فتح مكة، فحين أذّن بلال قالت جويرية بنت أبي جهل: لقد كان جاء أبي الذي جاء محمداً من النبوة فردها ولم يرد خلاف قومه، وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: واثكلاه ليتني مت قبل هذا اليوم أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة، وقال الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث العظيم أن يصيح عبد بني جمح على بنية أبي طلحة[٤].

(١) ضعيف أخرجه البيهقي في الدلائل ٣ / ٣١ من مرسل الزهري وعاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبان، السيرة الحلبية ٢ / ٣٩٠.

(٢) يقصدان مكة والطائف، والوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي؛ وقيل غيرهما. [الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٨٣].

(٣) صحيح مسلم ٧/ ١٢٧، رقم "٦٣٩٤" فضائل الصحابة، دار الجيل، دار الأفاق - بيروت، سنن ابن ماجه رقم" ٤١٢٨" دار الفكر – بيروت، جامع البيان للطبري٣٧٦/١١ تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م.

(٤) إمتاع الأسماع للمقريزي١/ ٣٩٢، مغازي الواقدي٢ / ٨٤٦ تحقيق: مارسدن جونس، بيروت-عالم الكتب.

الفصل الثاني: طرق معارضة الدعوة في العهد المكي

جهر رسول الله ﷺ بدعوته، وبدأ الناس يستجيبون لدين الله فانفجر غضب المعارضين، وفكروا في توقيفه، والقضاء على دعوته بشتى الطرق ولا يمكن الإحاطة بها في هذا البحث، إلا أنها ترجع لأساليب هي: المعارضة القولية والفعلية، الحرب النفسية، الشبهات الفكرية، وإجمالي الطرق في التالي:

المبحث الأول: السخرية والاستهزاء:

استُخدما لتخذيل رسول الله ﷺ وصحابته وتوهين معنوياتهم وهي طريق " يُتبع لإسقاط هيبة الخصم في النفوس فضلا عن تغليف الحقائق بعدم الجدية، لتمييع الحقائق وإبعاد الناس عن احترامها أو التفكير فيها، وابتعادهم عما يوجه إليهم"[1] ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان: ٤١] وسلكوا سبلا منها:

١. محاولة تقليل شأن الداعية: كانوا إذا رأوه ﷺ نظروا إليه قائلين: هذا غلام بنى عبد المطلب، مع أنه ﷺ جاوز الأربعين، ويعبسون بوجهه ﷺ ويسمونه ابن أبي كبشة - أحد أجداد النبي ﷺ لأمهاته – وذلك حين دعا إلى الله وخالف أديانهم؛ وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقاله أبو سفيان يوم الفتح وجند رسول الله ﷺ تمر عليه: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة[2]، وكان هدفهم رميه ﷺ بغرابة الأطوار والشذوذ فيما يدعو إليه ويبشر به وينذر، على غرار ما تعود الناس أن يرموا بمثله من يتصدى لدعوة جديدة، أو يبدي رأياً أو يقول قولاً، أو يخبر خبراً غير مألوف في المجتمع الذي يعيش فيه[3].

ولما انْتَهَى ﷺ إِلَى الطَّائِفِ، عمد إلى نفر من ثقيف – سَادَتها وأشرافها – ودَعَاهُمْ إِلَى الله، قال له: أَحَدُهُمْ هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ[4] إِنْ كَانَ اللهُ أَرْسَلَكَ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك؟! وَقَالَ الثَّالِث: واللهِ لَا أُكَلِّمُك أَبَدًا، لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ اللهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى الله ما يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَك[5].

٢. الضحك والاستهزاء: تعددت مواقف الاستهزاء والسخرية، صلى رسول الله ﷺ عند البيت وأبو جهل وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوس فقال لهم: أَيُّكم يقوم إلى سلا جزور بنى فُلَانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ في كتفي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى القوم

---

(١) الحرب النفسية د. فهمي النجار ص: ٨٧ ، ٨٨ دار الفضيلة - الرياض - بتصرف.
(٢) صحيح البخاري٣/ ١٠٧٤، رقم" ٢٧٨٢ " ، السنن الكبرى للنسائي ٦ / ٣١١.
(٣) سيرة الرسول ﷺ ١/ ٧٧ محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية صيدا- بيروت بدون.
(٤) مَرَطَ به أُمُّهُ مَرْطًا ولَدَتْهُ مَرَطَ الشَّعْرَ أو الرِّيشَ أو الصُّوفَ عن الجسد: نَتَفَهُ ومَرَطَ فلانًا: آذاه يمرط ثياب الكعبة أي يمزقها.[المعجم الوسيط مادة مرط]
(٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٦٧، السيرة الحلبية ٢ / ٥٢.

فَأَخَذَهُ فَلَمَّا سَجَدَ النبي ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بعض... فَلَمَّا قَضَى النبي ﷺ صَلاَتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ ... فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمُ الضِّحْكُ[١]، ومر عليّ بن أبي طالب ﷺ وجمع معه من الصحابة، بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩][٢].

٣. الغمز واللمز: كان أمية بن خلف إذا رآه ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله فيه ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١]، ومشى ﷺ ذات يوم والحكم بن العاص خلفه يخلج بفمه وأنفه يسخر بالنبي فالتفت إليه ﷺ فقال له: كن كذلك، فكان كذلك، واستمر الحكم يخلج بأنفه وفمه بعد أن مكث شهرا مغشيا عليه حتى مات[٣]، وتغامزوا كلهم بالمؤمنين ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠].

٤. السب والشتم: مر أبو جهل برسول الله ﷺ عند الصفا فآذه وشتمه ونال منه ما يكره، ومولاة لعبد الله بن جدعان تسمع ذلك، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن مر بها فقالت: يا أبا عمارة: لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم ابن هشام، وجده هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره...[٤]، لكرههم النبي ﷺ عدلوا عن اسمه إلى ضده فقالوا: مذمماً وإذا ذكروه قالوا: فعل الله بمذمم بدلاً من محمد، وكان ﷺ يقول لأصحابه: " ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد"[٥].

٥. التعيير: مات ولد النبي ﷺ فقال العاص ابن وائل: بتر محمد، ولما أوحي إليه قالوا: بتر محمد منا، فأنزل الله ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]، وقال أبو جهل: إن أبغضه لأنه أبتر، وقيل: أبو لهب، وقيل: عقبة بن أبي معيط، ولا يبعد فيهم أن يقولوا مثل ذلك فقد قالوا أسوأ من ذلك، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فاشتهرت الرواية بأن الآية نزلت فيه[٦].

(١) صحيح مسلم ٥/ ١٧٩ رقم" ٤٧٥٠ عن ابن مسعود .
(٢) المحرر الوجيز ٥ / ٤٢٦، البحر المحيط ٨ / ٤٣٥ أبو حيان الأندلسي دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م، روح المعاني٣٠/ ٧٦، ٧٧.
(٣) السيرة الحلبية١/ ٥٠٩ بتصرف.
(٤) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣٣٢ باختصار.
(٥) صحيح البخاري٣/ ١٢٩٩رقم " ٣٣٤٠ " ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ عن أبي هريرة .
(٦) لباب النقول للسيوطي ص: ٢٣٥، مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٠٨، رقم " ٣٢٤٥٦".

المبحث الثاني: محاولة صد الناس وصرفهم عن النبي وأصحابه:

رأى المعارضون أثر القرآن في النفوس، فتوجهوا لصرف الناس عن الهدى، وحولوا جُلَّ جهودهم للتنفير من سماعه ﷺ أو الإيمان به، على غرار ما يحصل في وسائل الإعلام المعارضة بشتى أصنافها، واختلاف أطيافها، فلاحقوا خطواته ﷺ لينفروا الناس ويبعدوهم بإثارة الشغب والضوضاء، وطردهم كلما رأوه يدعو، وتواصوا بذلك، فمن يسمعه وتُداخل نفسه جزالةُ ألفاظ القرآن يتبعُه.

قال ابن عباس ﷺ: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا له والغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح[1] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وسعوا لتكميم أفواه الدعاة بالترهيب أو الترغيب، ولم يناقشوا بالحجة ويراجعوا بالدليل؛ فحجته ﷺ أقوى، فسعوا لسترها ودفعها بالبهتان والتضليل، وعدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق الكذب، وذعرهم تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما رسول الله ﷺ أو أحد أصحابه فتنقاد إليه النفوس، وتهوى إليه الأفئدة.

وحاولوا اخراج الصديق ﷺ بدعوى خوفهم أن يفتن أبناءهم ونساءهم بقراءته القرآن لرقة صوته وبكائه، ومنعوا ابن مسعود من قراءته على مسامعهم، وذكر رسول الله ﷺ أخبار من مضى فاشترى النضر بن الحارث أحاديث كليلة ودمنة، وكسرى وقيصر؛ لصرف الناس بها قائلا لو شئتُ لقلت مثل هذا ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١][2] وإذا سمع بمجلس جلس فيه رسول الله ﷺ للدعوة إلى الله خلفه وقص من تلك القصص، قائلا: يا معشر قريش أنا أحسن حديثا منه فهلم فأنا أحدثكم أحسن من حديثه[3]، واشترى ابن خطل جارية مغنية، تشغل الناس بلهوها عن سماع النبي ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ [لقمان : ٦][4].

واستخدموا حربا نفسية أعدت بإحكام، فاختاروا موسم الحج، واختاروا عمه أقرب الناس له وألصقهم به، ليكون خلفه يصد الناس عنه، ويؤثر في الحجيج،

(١) التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٧٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٩٧، روح المعاني ٩ / ٩٩.
(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٣٨.
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٦ / ٢٨٢، التحرير والتنوير ٢١ / ١٤٣.

ورغم ضراوة المعارضة كسبت الدعوة انتشاراً واسعاً, فالبشر جبل على حب الاطلاع ومعرفة الجديد، ومن سكن بعيداً يفكر بأسلوب يختلف عن غوغائية الجاهلية التي يستخدمها المعارضون، فأسلم ضماد الأزدي وعمرو بن عبسة وأبو ذر الغفاري وغيرهم(١).

وجاء وفد من النصارى للرسول ﷺ فسألوه، ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله ﷻ وتلا عليهم القرآن، ففاضت أعينهم من الدمع، فاستجابوا له وآمنوا به وصدقوه، فلما قاموا اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا: "خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل، فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه، بما قال لكم، ما نعلم ركبا أحمق منكم، فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا أنفسنا خيرا"(٢).

المبحث الثالث: الجدل والدعايات الكاذبة:

طريق هدفه صرف الناس عن الدعوة، وتنحية المؤمنين إلى الفرقة والخلاف، ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] وسجل القرآن أكثر من عشرين شبهة ودعاية، أثيرت أمام الرأي العام بمكة وخارجها لتحقيق هذا الهدف، دارت حول التوحيد، والرسالة، والبعث بعد الموت، في مسالك أهمها:

١ـ <u>الطعن في القرآن الكريم:</u> وله صور مختلفة منها:

أ. ادعاء بشرية القرآن فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾ [الفرقان: ٤] ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١].

ب. ادعاء أنه قصص الأولين وأساطير السابقين ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٥] إنه لا يقرأ ولا يكتب

(١)قابلوا الطُفَيل بن عمرو الدوسي، وأعشى قيس وحاولوا صدهم، وكان الرجل يخرج من اليمن أو مضر فيأتيه قومه فيقولون: "احذر غلام قريش لا يفتنك.."، وكان أبو لهب يمشي خلفه ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب، فإذا فرغ ﷺ من حديثه، قال: لا تسمعوا منه فإنه كذاب [انظر سنن الدارقطني ٣ / ٤٤، رقم "١٨٦ "، مسند أحمد ٣ / ٤٩٣، رقم "١٦٠٧٠" المستدرك ٢/ ٦٨١رقم ٤٢٥١، صحيح ابن حبان ١٤/ ١٧٢رقم " ٦٢٧٤ "].

(٢) اختلف في عددهم فقيل: ٢٠، ٤٠، ٨٠، ، ٦٢ ، ٣٢ من نجران، وقيل قدم جعفر على النبي ﷺ في سبعين، اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام [الجامع لأحكام القرآن ٢٥٦/٦، السيرة الحلبية ٢ / ٣٩].

قالوا: علمه غلام نصراني[1]: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

ج. الاحتجاج بعدم نزول القرآن جملة واحدة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] عن ابن عباس أن كفار قريش قالوا في بعض معارضتهم لو كان هذا القرآن من عند الله لنزل " جملة " كما نزّل التوراة والإنجيل[2]، لهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨] [3].

٢ـ ادعاءاتهم المتضاربة في الرسول ﷺ: فاتهموه بالسحر، والتصقوا به وأصروا عليه إصراراً عجيباً ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، واتهموه بالجنون ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦]، واتهموه بتخيل المعاني وصياغتها في كلمات بديعة فقالوا: ﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥]، وادعوا بشريته زاعمين أن النبوة والرسالة أعظم وأجل من أن تعطى لبشر، ولما أغلقت الطرق أمامهم قالوا﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

٣ـ التشكيك في دلائل النبوة: شككوا في الاسراء والمعراج ، فالمطعم بن عدي لما أخبر قال: كل أمرك كان قبل اليوم كان أمما غير قولك اليوم، أما أنا، فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهرا، ونحدر شهرا، تزعم أنك أتيته في ليلة، واللات والعزى لا أصدقك، وما كان الذى تقول قط، وكان له حوض على زمزم أعطاه عبد المطلب، فهدمه وأقسم باللات والعزى لا يسقى قطرة أبدا[4].

وكتب مجوس فارس لما أنزل الله تعالى تحريم الميتة إلى مشركي قريش - وكانوا أولياءهم في الجاهلية وبينهم مكاتبة- إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم

(١) جبر غلام الفاكه بن المغيرة؛ وقيل: يعيش [الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٧٧].
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤ / ٢٥٤، ٢٥٥.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ أبو جعفر النحاس، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب - بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، لباب النقول ص: ١٤٨، الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ١٥.
(٤) فضائل بيت المقدس ص: ٨٢، ضياء الدين المقدسي، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر ١٤٠٥هـ، الدر المنثور ٥ / ٢٠٨، تفسير ابن كثير ٥ / ٤١.

يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال وما ذبح الله فهو حرام، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١][١].

٤. **طرح أسئلة التعجيز والتعنت**: أرسل المعارضون إلى أحبار اليهود يسألونهم عن النبي ﷺ فقالوا: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثاً عجباً، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ ونزلت سورة الكهف تجيبهم على ذلك، غير أنهم أنكروا وشردوا، ولم يستجيبوا واتبعوا أهوائهم بغير علم[٢].

المبحث الرابع: طلب المعجزات المحسوسة:

طلب المعارضون معجزات حسية تعجيزاً؛ لما أخفقوا وقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وعيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، وثمود كانت لهم ناقة؛ فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك! فقال رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ فقالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: فإن فعلت تصدقوني قالوا: نعم! والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين، فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاءه جبريل عليه السلام وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكني لم أرسل آية فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: اتركهم حتى يتوب تائبهم[٣].

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص: ٢٢٦ عن عكرمة، بتصرف يسير.

(٢) لباب النقول ص: ١٢٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٤٤١، لباب النقول ص:١٠٠، وقالوا: قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق أم باطل؟![تفسير الطبري ١٧ / ٥٥٦، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٣٢٨، ٣٢٩ باختصار].

فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ..إلى.. إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ – ١١١] .

المبحث الخامس: استخدام سلاح الفتنة:

لم تفلح الشبهات ووسائل الإغراء في الصد عن سبيل، فتواصى المعارضون بتعذيب من آمن لرده عن دينه، ولقي الدعاة أشد الفتن وصنوف العذاب، وهذه بعض الصور التي استمرت فترة طويلة، لرد الأتباع عن دينهم، وتخويف غيرهم من الدخول في الإسلام، أو منع الهجرة، وربما للانتقام وتنفيس الغيظ والتشفي الكامن في نفوس المعارضين، بعد أن قويت شوكة الدعوة، ونسي هؤلاء أن الاضطهاد يزيد الدعوة قوة وثباتاً في نفوس المؤمنين بها، وصدق القائل:

تالله ما الدَّعواتُ تُهزَمُ بالأذى أبداً وفي التاريخِ بِرٌّ يميني

إيذاؤه ﷺ حسيا ومعنويا: تولى إيذاءه عمه أبو لهب، وقال لابنيه عتبة وعتيبة: رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا بنتي محمد، وكان يطرح القذر على باب رسول الله ﷺ، وفي يوم من الأيام رآه أخوه حمزة ﷺ قد فعل ذلك فأخذه وطرحه على رأسه، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول صابئ أحمق.

وأبو لهب شخصية تتكرر فربما وجد الدعاة من أقربائهم من يقلب لهم ظهر المجن، ويبالغ في إيذائهم وحربهم، أكثر من خصومهم، وكانت زوجه أم جميل تأتي بأغصان الشوك، فتطرحها في طريقه ﷺ ليلاً، وسمعت بنزول سورة المسد، فجاءت وفي يدها فهر ـ حجر ملء الكف ـ تبحث عن رسول الله ﷺ وهو جالس مع أبي بكر عند الكعبة فأخذ الله ببصرها، فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، ثم قالت:

مذمماً عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا[1].

وكانوا يؤذونه ﷺ بالعبس والتكشير بوجوههم إليه، وجعله ينظر إلى ما يكره من العورات، ويحثوا سفهاءهم التراب على رأسه، وكانوا يَنْضِدون الفرثَ والأقحاث والدماء على بابه، ويطرحون رحم الشاة برمته، ويسبونه ويهجونه[2].

إيذاء الصحابة: أتوا بما تقشعر له الجلود وتنفطر منه القلوب، فَعَدوا على من أسلم ووثبت كل قبيلة على من فيها يحبسونه ويعذبونه بالضرب والجوع والعطش وغيره، سأل سعيد بن جبير ابن عباس: أكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذِرُون به في ترك دينهم؟ فقال: نعم والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجِيعُونَهُ وَيُعَطِّشُونَهُ حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا من شدة الضُّرِّ الذى به، حتى إنه ليُعْطِيهِمْ ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له آلات

(١) المستدرك٢/ ٣٩٣، رقم "٣٣٧٦" وقال الحاكم: صحيح الإسناد، السيرة الحلبية ١/ ٥٠٨.
(٢) راجع محنة المسلمين في العهد المكي ص: ١٣، د. سليمان بن عبد الله السويكت مكتبة التوبة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

والعُزّى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم حتى إن الْجُعَل ليمرّ بهم فيقولون له أهذا الْجُعَلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افْتِدَاءً منهم مما يبلُغُون من جَهْدِهِ[١].

وعثمان بن عفان ﷺ أخذه عمه الحكم فأوثقه رباطا، وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث والله لا أحلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان: والله لا أدعه أبدا ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[٢].

وأبو جهل: إذا سمع بالرجل أسلم له شرف ومنعة أنّبه وأخزاه وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك لنسفهن حلمك، ولنفيّلَنَّ رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن ما لك، وإن كان ضعيفاً أغرى به[٣].

السجن أو التثبيت: لجأوا إليه لصد الدعاة عن تبليغ دعوتهم ونشر رسالتهم، فمن أمسكوا به يحاول الهجرة حبسوه، وحبس آخرون دون هجرة، قال سعيد بن زيد ﷺ: والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر[٤]، وفي رواية قال: لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأمي ــ يعني أم سعيد ــ يريدني على الإسلام[٥]، وكان النبي ﷺ يدعو لمن سجن قائلا: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسني يوسف[٦].

المبحث السادس: المساومات والإغراءات:

طريق آخر لمحاولات المعارضين وئد الدعوة، وإيقاف انتشارها، وحتى يتنازل الداعية عن دعوته، فتحوا أبواب المغريات على مصراعيها، ولا زالت تلك الطريق تستخدم لاحتواء الدعاة وتسييرهم إلى ما يراد لهم، وكم من داعية لم يسقطه الترهيب أسقطه الإغراء ومنها:

أولا: الإغراءات المادية: بعثوا إليه ﷺ إن أشراف قومك اجتمعوا ليكلموك، فلما جاءهم قدّموا له بما هدفه الاستمالة والاستدراج وقالوا: فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا! جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه ــ التابع من الجن ــ قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨ / ٢٠٩، رقم "١٧٣٥٢"، فتح الباري ٧ / ١٦٤، رقم "٣٦٣٨".
(٢) تاريخ دمشق ٣٩ / ٢٦، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ص: ٢١ محمد بن أبي بكر الأندلسي، تحقيق د. محمود يوسف زايد، دار الثقافة- الدوحة - قطر ١٤٠٥هـ، الطبقات الكبرى ٣ / ٥٥، محمد بن سعد بن منيع، دار صادر - بيروت.
(٣) سبل الهدى والرشاد ٢ / ٣٥٧.
(٤) صحيح البخاري ٣ / ١٤٠٢رقم " ٣٦٤٩" باب إسلام سعيد بن زيد.
(٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣ / ٤٩٧، وقال صحيح على شرط الشيخين.
(٦) صحيح البخاري ١/ ٣٤١ رقم " ٩٦١" باب دعاء النبي اللهم اجعلها عليهم سنين.

فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم[1]، فوضح رسول الله حقيقة الرسالة، وهي الاستقامة على أمر الله، وليس الركون إلى زهرة الدنيا وزينتها، فهو صاحب رسالة وليس طالباً لمغنم أو دنيا زائلة.

ومن المساومات أيضاً استحلال أموال الصحابة بغير حق فعن خَبَّابٍ ﷺ قَالَ: كنت قَيْنًا في الْجَاهِلِيَّةِ وكان لِي على العاصِ بن وائلَ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ قَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَقُلْتُ: لاَ أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ تُبْعَثَ قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأُوتَى مَالاً وَوَلَدًا، فَأَقْضِيَكَ... [2].

ثانيا: الخداع بالمساومات الدينية: أخبث ما تفتق عنه تخطيطهم ومكرهم، فلم يجدوا غضاضة في الاعتراف بشيء من الحق والتفاوض مع أهله نظير القضاء عليه وعلى أهله ولو بعد حين، فأظهروا رغبة في الملاينة، واستعداد للمداهنة ووعدوا بالتفاهم على أمر وسط، فلا مانع لديهم من التنازل عن شيء من باطلهم مقابل تنازل الرسول ﷺ عن بعض موقفه ويتنازلون هم عن بعض موقفهم[3]، قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩].

وعرضوا أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا الله سَنَة، فإن كانوا على الحق فقد أخذ منه حظاً، وإن كان على الحق أخذوا منه حظاً، لا فرق عندهم بين عبادة آلهتهم أبد الدهر، أو عبادتها سنة أو يعبدوا الله سنة بعدها، ولعلهم قدموا هذا التنازل، ليكسبوا اعترافا عملياً بشرعية باطلهم وماهم عليه.

ولأن الحق منهجه محدد أنزله الله، وأمر باتباعه وحذر من مخالفته، والقضية جوهرها الاستمساك بهذا المنهج والمحافظة عليه، والذب عنه حتى الموت، أنزل الله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ١ – ٢] وقوله: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

وبالتالي لا تنازل عن شيء من هذا المنهج لأي هدف كان، ولو بدا سامياً عند البعض؛ ففرق أبعد ما بين السماء والأرض، أن يعبد المسلمون الله كل عام، أو يعبدوه عاماً ويعبدون آلهة المشركين عاماً بعده، فالصورة الأولى هي الحق،

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥٦، الجامع لأحكام القرآن١٠ / ٣٢٨، ٣٢٩ ومنها محاولة عتبة بن ربيعة [صحيح ابن حبان ١٤ / ٥٢٢، رقم " ٦٥٦٤" السيرة الحلبية ١/ ٤٨٧، فقه السيرة محمد الغزالي ص: ١٠٩، دار القلم، دمشق ط السابعة ١٩٩٨م، تحقيق: الألباني، وقال: ضعيف.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧٣٦، رقم " ١٩٨٥"، صحيح مسلم ٨ / ١٢٩، رقم "٧٢٤٠".

(٣) سيرة الرسول ﷺ دروزة ١/ ١٥٦ بتصرف.

والثانية باطل وشتان بينهما، وماذا يكسب المسلمون من هذا التنازل؟ اعتراف أهل الباطل بحق أهل الحق في الوجود؟!.

ومن المساومات اشتراط بعض التعديل والتبديل فيما أوحى إليه، فقالوا: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ فرد عليهم: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [يونس: ١٥] وهذا بيان صارم يبين أن النبي ﷺ داع إلى الله، وليس تاجرا يقبل المساومة أو التنازل في السعر والثمن.

المبحث السابع: الضغط الاجتماعي:

حاولوا به إسكات النبي ﷺ وصحابته عن تبليغ الدعوة، وزعزعة صف الدعاة وإثناؤهم عن مهمة التبليغ والبيان واتخذ وجهتين:

١. الضغط على صاحب الرسالة ﷺ: من زعماء المعارضة، أو من الأقارب الذي ساندوهم، وهو أشد ضغط على الدعاة وصدق طرفة[١] حين قال:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً *** عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

مشى أشراف من قريش إلى أبي طالب، فقالوا له: إن ابن أخيك سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فقال لهم قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ يظهر دين الله ويدعو إليه، فلم يصبروا حين رأوه ﷺ ماضياً في دعوته، فتذامروا ثم مشوا إلى أبي طالب، وقالوا له: إن لك سناً، وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك الله أحد الفريقين، ثم انصرفوا.

وعظم على أبي طالب هذا، فدعا رسول الله ﷺ وقال له: أبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فلما رأى رسول الله ﷺ ضعفه قال: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته[٢].

٢. الضغط على الأتباع والمؤيدين: عثمان بن عفان ﷺ أوذي وعُذب على يَدِ عمه الحكم بن العاص- كما سبق- ، ومصعب بن عمير ﷺ كتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً فبصر به عثمان بن

(١) طرفة بن العبد شاعر، جاهلي اتصل بعمرو بن هند وكان في ندمائه، أرسله إلى عامله على البحرين وعمان- وأمره بقتله، لأنه بلغه أن هجاه بها، فقتله المكعبر، وهو ابن عشرين عاما، وقيل: ابن ست وعشرين [الأعلام للزركلي ٣ / ٢٢٥].

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٢/ ٨٥١ ابن الأثير، تحقيق: الأرنؤوط مكتبة الحلواني - ط الأولى، وضعفه الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالي ص: ١١٤، ١١٥.

طلحة يصلي، فأعلم أهله وأمه، فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوساً إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة وعاد منها إلى مكة[1].

و سمعت أم سعد ابن أبي وقاص ﷺ بإسلامه فثارت ثائرتها، وقالت: يا سعد ما هذا الدينُ الذي اعتنقته فصرفَك عن دين آبائِك وأجدادِك، لتتركنَ هذا الدين أو لأمتنعن عن الطعام والشراب حتى أموت فَيتفطرُ قلبُك حزناً عليّ ويأكلك الندم بفعلتك التي فعلت ويعيرك الناس بها أبد الدهر، فقال: يا أماه لا تفعلي فأنا لا أدع ديني لشيء. فنفذَت وعيدها وامتنعت عن الطعام والشراب أياما، فسألَها أن تتبلغ بقليل من طعام أو شراب فرفضت، فقال: يا أماَه إني لعلى شديدِ حبي لكِ لأشدُ حباً لله ورسولِه، واللهِ لو كانت لكِ ألفُ نفسٍ فخرجت نفساً بعد نفسٍ ما ارتددت عن ديني فكلي أو دعي[2] فأكلَت مكُرهة وأنزل اللهُ ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٨]، استعصى سعد على أمه وقال هذه الكلمات لأنه لا يعادل دين الحق وزنا وثقلا بغيره، بعد أن هداه الله وشرح صدره للإسلام وهو الشاب اليافع الحدث ، لكن فعله دليل على الاعداد والتربية الجيدة من الرسول ﷺ للصحابة ﷺ.

وأم سلمة لما أرادت الهجرة منعها أهلها وأهل زوجها من الهجرة وأخذوا ابنها منها سنة كاملة وهي صورة للمعاملة القاسية التي سُلكت مع المسلمين، رجل يفرق بينه وبين زوجته وبينهما وبين ابنهما وهو ضغط نفسي من الأقارب قبل الضغط المجتمعي[3].

المبحث الثامن: مطاردة الفارين بدينهم خارج مكة:

رأى رسول الله ﷺ ما يحل بأصحابه من فتن، فوجههم للخروج إلى الحبشة، وعز على المعارضين أن يجد المسلمون مأمناً وقراراً فلم يهنأ لهم عيش، ولم تستقر لهم حال لما رأوا الدعاة أصابوا داراً وقراراً، وربما خافوا من انتشار الدعوة خارج مكة، وأن يكون لها صدى عالمي وكانت حبيسة مكة والعرب، فعملوا على استعادة المهاجرين، أو خافوا من وجود مركز دعوي غير مكة يكون ملاذاً لكل قاصد، وإلا فهجرة الصحابة وتركهم مكة راحة لما في نفوسهم، وعليه فالملاحقة كان هدفها الأساس إغلاق منافذ نشر الدعوة.

فأرسلوا مفاوضاً بارعاً محبوبا للنجاشي عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية حمُلت إليه، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم قالا له إن نفرا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا، فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك، قال: إنا لا نسجد

(١) الطبقات الكبرى٢/ ١١٦.
(٢) سير أعلام النبلاء١/ ١٠٩، تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٣١.
(٣) انظر الموقف في الإصابة في تمييز الصحابة ٨ / ٢٢٢، السيرة لابن هشام ٢/ ٣١٥.

الا الله ﷻ، قال: وما ذاك؟! قال: إن الله ﷻ بعث إلينا رسوله ﷺ وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله ﷻ، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله ﷻ هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر...[١]، ورحم الله عباده ورد وفد قريش خائباً، وجعل للمسلمين ملجأ، بما لخصه جعفر ﷺ بحسن عرض قضايا الدعوة التي تعلمها من رسول الله ﷺ في هذه المقالة الموجزة وعرض فائق شمل ما به صلاح الفرد والمجتمع والسمو بهم إلى مستوى قيادة العالم وريادته.

وأبو جهل والحارث بن هشام، قدما المدينة والنبي ﷺ بمكة لم يهاجر، فكلما عياش بن أبي ربيعة، وأخبراه أن أمه نذرت أن لا تغسل رأسها، ولا يمس رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراه، وأن لا تأكل ولا تشرب ولا تدخل مسكنا حتى يرجع إليها، وأنه أحب ولد أمه إليها وفي دين منه بر الوالدين، فارجع إلى مكة فاعبد ربك كما تعبده بالمدينة، فرقت نفسه وصدقهما، وحذره عمر فقال عياش أبر أمي ولي مال هناك آخذه، فقال له عمر فخذ ناقتي فإنها نجيبة ذلول فالزم ظهرها فإن رابك منهما ريب فانج، وخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال أبو جهل: لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟! قال: بلى فأناخ ليتحول عليها فلما استووا بالأرض عدوا عليه وأوثقاه رباطا ودخلا به مكة نهارا موثقا، وقالا يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهائنا[٢].

ولأجل المطاردة والترصد يفهم لم تسلل الصحابة في هجرتهم، استخفاءً من ظلم قريش، ولماذا رصدت قريش جائزة لمن يأتي برسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة، ولماذا واجهوا صهيباً وحاولوا منعه لما أراد الهجرة إلى المدينة[٣].

المبحث التاسع: الحصار الشامل:

نفدت بالمعارضين الحيل لما رفضت مفاوضاتهم كلها، ووجدوا زعامتهم تهتز وتترنح، وتوشك أن تفقد سيطرتها، فتأهبوا لجولة أخرى من المعارضة، تنال من بني هاشم والمطلب حين وجدوهم مصممين على حماية النبي ﷺ ومساندته، وأنهم غير مسلميه لهم، فاجتمعوا ووصلوا إلى حل غاشم هو الحصار الشامل، فتحالفوا على أن لا يناكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلون بيوتهم، ولا يكلموهم، ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ١ / ٤٦١، وقال الأرنؤوط : إسناده ضعيف، السيرة الحلبية ٢ / ٢٨.

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٧٦، رقم " ٩٩١٨ "، الهيثمي، دار الفكر، بيروت ١٤١٢هـ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف١/ ٣٤١، للزيلعي، دار ابن خزيمة - الرياض - ط الأولى ١٤١٤هـ.

(٣) المستدرك ٣ / ٤٥٠ رقم "٥٧٠٠"، السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٦.

وكتبوا صحيفة علقت في جوف الكعبة، فجمع أبو طالب بني هاشم والمطلب ودعاهم إلى حفظ النبي ﷺ فأجابوه مسلمهم وكافرهم، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عدا أبو لهب كان مع قريش، وحبس الرسول ومن معه في شعب بني هاشم، وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب لهم، وقطعت عنهم الميرة والمادة، ومنع التجار من مبايعتهم، فجهد القوم حتى أكلوا أوراق الشجر، والجلود، وسمعت أصوات النساء والصبيان يتضاغون جوعاً، فلم يكن يصل إليهم شيء إلا سراً، وكانوا لا يخرجون من الشعب إلا في الأشهر الحرم، فيشترون من العير التي تأتي من الخارج، وكان أهل مكة يزيدون عليهم في الثمن حتى لا يستطيعوا الشراء[1].

وما يحدث مع الأقليات المسلمة الآن من حصار وتضيق وإبادة جماعية، أو تهجير علني دون مبرر من هذا القبيل ويدل على حقدهم على الإسلام وأهله.

المبحث العاشر: صد المؤمنين عن العبادة والطاعة:

سلطات مكة الرسمية رأت في صلاة النبي ﷺ علنية، وفي تلاوته القرآن دعوة إلى ما يخالف التقاليد الجارية، وفي دعوته الناس جهاراً إلى دين جديد بدعة يجب الوقوف أمامها بشكل ما؛ فعملوا على صد المؤمنين عن أداء طاعتهم وعبادتهم، فحاول أبو جهل صد النبي ﷺ عن عبادته ورأى في نفسه قوة على نهي النبي والتصدي له، وقال لأصحابه: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَقِيلَ نعم. فقال: وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وهو يُصَلِّي زعم لِيَطَأَ على رقبته، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ على عَقِبَيْهِ... فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ – ١٤] [2]، وبين الله تعالى حالة من حالاتهم في التصدي فقال: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] قال مجاهد: كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزؤون به ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته، قال مقاتل: كان إذا صلى الرسول في المسجد يقومون عن يمينه ويساره بالتصفير والتصفيق ليخلطوا عليه صلاته[3].

(١) راجع فقه السيرة للغزالي ص: ١٢٣ وما بعدها.
(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٣٠، رقم" ٧٢٤٣"عن أبي هريرة، سيرة الرسول دروزة ص: ١٥٣.
(٣) مكا يمكو إذا صفر والمكاء الصفير، والمكاء طائر يألف الريف، والتصدية التصفيق يقال: صدى يصدي تصدية إذا صفق بيديه[مفاتيح الغيب ١٥/ ١٢٨، إغاثة اللهفان١ / ٢٤٤].

المبحث الحادي عشر: محاولة التخلص من صاحب الرسالة :

يود الفاشل التخلص ممن تفوق عليه أو أظهر ضعفه وفشله، وضعيف الحجة يبغض قويها ويسعى للنيل منه، ولما فشل المعارضون في كف الدعوة والدعاة، فكروا في التخلص من النبي ﷺ، وكانت هناك محاولات للتخلص من النبي ﷺ فردية وجماعية منها:

١. مشت قريش إلى أبي طالب وقالوا له: هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة، أنهد ـ أي أشد وأقوى ـ فتى في قريش وأحمله، فخذه لك ولداً وأسلم إلينا ابن أخيك هذا ـ الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ـ فنقتله فإنما هو رجل كرجل...(١).

٢. قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمدا قد أتى ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وسب آلهتنا وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر فإذا جلس في صلاته فضخت به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح أخذ حجرا ثم جلس...(٢).

٣. اجتمعوا في دار الندوة للتخلص منه ﷺ، وأجمعوا أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً قويا حسيبا في قومه نسيباً وسطاً، ويعطى سيفاً صارماً ثم يغدون فيضربون رسول الله ﷺ ضربة رجل واحد فيقتلونه، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل فلم تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً فيرضوا بالعقل(٣)، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] وأخفق المعارضون وهاجر رسول الله ﷺ وتبين لهم أن ما كانوا يصبون إليه بعيد المنال، فنصر الله دينه وأتباع نبيه.

(١) السيرة لابن هشام ٣/ ١٠٣، السيرة الحلبية ١ / ٤٦٣.

(٢)هناك محاولات أخرى لقتله ﷺ ذكرها السيوطي في الخصائص الكبرى ص: ٢٠٨، سبل الهدى والرشاد ١٠/ ٢٥٧، السيرة الحلبية ١/ ٤٦٤].

(٣) السيرة النبوية ابن هشام ٣/ ١٠٣، السيرة الحلبية ١/ ٤٦٣.

الفصل الثالث: سبل مواجهة المعارضة والحد منها

هذا الفصل بيان لما استخدمه الرسول ﷺ وصحابته من طرق مواجهة المعارضة وسبل دفعها، وهي سبل عملية واجهت المعوقات سابقة الذكر، وفي مقدور البشر العمل بها، أخذاً بالأسباب وسعياً لتحصيل النتائج.

المبحث الأول: سبل مواجهة أعداء الدعوة:

يتناول عدة مطالب تتحدث عن كيفية المواجهة وتعتبر تحصيناً عاماً في مواجهة خارجة، وتربية عامة للجماعة المؤمنة وهي:

المطلب الأول: العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان:

يعيش الإنسان بين هداية أو غواية، وسبيل الهداية ثبات عقيدته، التي تعطي قلبه الاطمئنان والعزة والثقة، والعهد المكي ركز على غرس مفاهيم ومقتضيات لا إله إلا الله، وهي الخطوة الأولى لوظيفته الكبرى، فيمتلئ قلبه محبة وإجلالاً، ويدفعه ذلك لطاعته واتباع أوامره ومتابعة نبيه، فعقيدة الكفر طاغية ولابد من تصحيحها وبنائها بشكل هادئ، ينبثق منها سلوك صحيح، وتضمن في الوقت نفسه الثبات على الحق، وتحمل التضحيات في سبيله[1].

وارتفعت العقيدة في نفوس من رباهم محمد ﷺ فتحرروا من الوهم والخرافة وعبودية الهوى والشهوات؛ فجعلتهم عبيداً لله تعالى يشعرون بحرية حقيقية وإنسانية كاملة، فالإنسان ليس عبداً لكائن في الأرض أو عنصر في السماء، فكل من في السماء والأرض عبد لله، يعنو لجلاله ويذل في ساحته ويخضع لحكمه وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر، كبر أو حقر، وعلى كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ما سوى ذلك، ويجب أن تبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة[2].

وركزت غالب آيات القرآن المكي على هذه الوظيفة ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ [المدثر: ٣] عظّمه ونزهه، واختار ابن مسعود ﷺ ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ – ٤] فقرأه على مسامعهم لأنها قضية الدعوة ووظيفتها الإيمان بالله تعالى معرفة وعبادة، وإعداد الإنسان المستعلي بانتمائه إلى هذا الدين المعتز به.

---

(١) راجع المنهج الحركي للسيرة ١/ ٣٠.
(٢) فقه السيرة للغزالي ص: ٩٧.

ثانيا: بيان مهمة الخلافة عن الله ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] بنشر هذا الدين فمحمد ﷺ لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل، وإنما أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حُجبت عنه، ومسح الران عن القلوب، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، ووصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق، وكانوا حيارى محسورين، ووازن للناس بين الخلود والفناء، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم، فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذي فطر السماوات والأرض(١).

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] ففتحوا الأرض لنشر الإسلام وتحقيق أهدافه، دون اكتراث لذهب أو فضة، إنما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولله عاقبة الأمور.

المطلب الثاني: التأني والتدرج:

ما جدوى أن تبذل جهود وتنفق أموال وتضيع أوقات وتزهق أنفس، ثم تضيع نتيجة تهور أو استعجال؟! لا شيء؛ كان محمد ﷺ على دراية بطبيعة المجتمع المكي وما حوله؛ فراعى التأني والتدرج، في المواجهة وتبليغ الدعوة، فبدأ سراً ثم علانية، وسلماً وبعد الهجرة كانت المفاصلة المسلحة، هذا لمعرفته ﷺ بطبيعة الطريق وطبيعة أهل النفوذ، وتجنباً للمواجهة أول الأمر دون إرساء قاعدة صلبة تحمل الدعوة، وتتصدى لأهل الباطل.

والتدرج يستلزم تقديم الأصول على الفروع، فالفرع دون أصل مبتوت، وإن طال الزمان به، ودلالته وصيته ﷺ لمعاذ ﷺ :" إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس"(٢)، وفي رواية " فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ..."(٣) فعرض ﷺ لمعاذ كيفية الدعوة بتقديم عبادة الله وتوحيده والإيمان برسوله ﷺ على سائر فروض الإسلام، فلا تؤدى الفرائض إلا بعد الإيمان.

عن أم المؤمنين عائشة قالت: " إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا

(١) فقه السيرة للغزالي ص: ١١٠ باختصار وتصرف.
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٢٩ رقم" ١٣٣١" .
(٣) صحيح البخاري ٢/ ٥٠٥ رقم" ١٣٨٩ " باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس.

لا ندع الزنا أبدا ..."[1]، قال ابن حجر: " أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام"[2]، وهذا طبيعي في الوصول إلى الكمال الدعوى والارتقاء بحال الأفراد.

ويراعى التوازن في التدرج فالتغيير لن يتحقق مرة واحدة، وربما ظن البعض أن من الحكمة موافقة القوم على بعض باطلهم، لعلهم يقبلون الدعوة، وبعد أن يرسخ الإيمان في قلوبهم يتم نهيهم عما وافقهم عليه من أخطاء، وهذا نظر يعارض نصوص الشريعة، وربما أدى إلى ترسيخ الأخطاء، وقد لا تتاح فرصة للدعاة لتصحيحها فتظل عالقة، ولا بد من التفريق بين سكوت النهي عن شيء و سكوت الموافقة عليه وإقراره، فالسكوت يمكن تحمله إذا لم تسمح الظروف، أما إقرار وموافقة الباطل فليس هناك ما يسوغه من أدلة، والأدلة بخلاف ذلك.

والمرحلة المكية أخذت منهج السلم والتأسيس للدعوة، ويحتاج إلى صبر وضبط للمشاعر والأحاسيس، وعدم الانجرار وراء الهوى أو الانسياق خلف المتهورين، واستعجال ثمرة التبليغ قبل نضجها، فالمنهج واضحة مراحله هدم الجاهلية وإقامة الإسلام، وربما قيل التشريع كان في المدينة، والذي بمكة تكوين وإعداد، والجواب أن ما في مكة ضرورة قبل اكتمال التشريع، فلابد من التهيئة للتخلص من العقيدة الفاسدة، وأمراض المجتمع كالميسر، والربا، وغيرها[3].

المطلب الثالث: الدعوة إلى تحرير العقل من التعطل:

يتقدم الإنسان بالعقل وعمله التفكير البصير؛ في ظل الحقائق الهادية، فإذا تعطل انحسرت معرفته وضاق أفقه، ودُعي المعارضون للتحرر من التقليد إلى التفكير، وفي القرآن المكي وأحاديث الرسول ﷺ، كثيراً من الشواهد الداعية إلى التفكير المنهجي، في الأنفس والكون، واستحضار مآلهم بعد هذه الحياة بالآتي:

١. ضرب الأمثلة بفساد الآلهة: كانت الدعوة صريحة من خلال هذه الآية ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فعلى العقل أن يقوم بمهمته في التفكير، ثم يصدر حكمه.

٢. بيان عجز الآلهة: ورجاؤهم لا فائدة منه، فهي لا تتحرك، ولا تقدم أو تؤخر شيئاً، أو تدفع عن نفسها شراً ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٠ رقم" ٤٧٠٧ " باب تأليف القرآن.
(٢) فتح الباري ٩ / ٤٠.
(٣) راجع سورة النحل الآية: ٦٧، سورة الروم الآية : ٣٩ والسورتان مكيتان وغيرهما الكثير.

كِيدُونِ فَلَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥]. ﴿ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

٣. طلب البرهان: على كون الأصنام آلهة ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]. وطبيعي اعترافهم بعدم وجود كتاب، وبهذا تبين عجزهم وجهلهم معاً.

وجاء حصين فقال له النبي ﷺ: كم تعبد من إله؟ قال: سبعاً في الأرض، وواحداً في السماء. قال: فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذى فى السماء. قال: فإذا هلك المال من تدعوا؟ قال: الذى في السماء. قال: فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه؟! أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟ قال: لا واحدة من هاتين. قال: "وعلمت أنى لم أكلم مثله" ... فلم يقم حتى أسلم(١).

وهذا أسلوب يوجه إلى أهمية وجود قناة حوارية بين الداعي والمدعوين، فالخير لا يعدم ومهمة الداعية، تحرير العقل وتوصيل الرسالة لا حجبها.

٤. الدعوة إلى التفكر في الكون المفتوح للوصول إلى الحقائق الهادية، قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧]، والنظر فيما حولهم ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس: ٢٤] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

٥. الدعوة للتفكر في النفس: فالإنسان كون صغير انطوى فيه العالم الأكبر قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ – ٧]، ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. وما هي إلا جولة أو عدة جولات في الكون أو النفس، ترشده إلى الحقائق الناصعة والبراهين الساطعة على وجود الله سبحانه وصحة هذا الدين.

٦. الدعوة للتفكر في الادعاءات المغلوطة، ومراجعة النفس: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] فينتفع بها من أخذ

(١) سنن الترمذي ٥ / ٥١٩، رقم "٣٤٨٣ " وقال: حديث غريب، مسند البزار ٢/ ٣٠، رقم "٣٥٨٠" ، مسند عمران بن حصين.

بمقوماتها بعيداً عن الهوى وتجرد لطلب الحق، وعلم حقيقة القضية، فراجع نفسه خالياً أو مع غيره، وسأل نفسه أو صاحبه هل بمحمد ﷺ جنون أو كذب، ثم ينفرد ويتفكر حتى يصل إلى الحق، ولعل السبب أن اجتماع الكثرة يشوش الخواطر، ويعمي البصائر ويمنع الرؤية، ويقلل الإنصاف ويثير تعصب المذهب، أما هذه فدعوة للبحث عن الحق بعيداً عن الهواتف والدوافع، والتعامل الواقعي بعيداً عن الدعاوى الرائجة والعبارات المطاطة التي تبعد العقل عن الحقيقة.

المطلب الرابع: التعامل بأخلاقية الدعوة:

قيم الأخلاق تتمثل في تهذيب الأخلاق، والترفع عن مجاراة السفهاء، والمبدأ الذي لا يجسده صاحبه لا يكتب له النجاح، مهما كانت الدعاية له، وثبت فشل من نادى بمبادئ سحرت الناس وجذبتهم، فلما رأوا سلوك دعاتها انفضوا عنهم وعنها، وساعد على مواجهة المعارضة التمسك بأخلاق الإسلام، فهو ﷺ مثال استقامة السلوك وسمو الأخلاق، قبل النبوة وبعدها: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، قالت عائشة رضي الله عنها: " كان خلقه القرآن"، وقال ابن كثير[١]: (صار امتثالُ القرآن، أمرًا ونهيًا، سجية له، وخلقًا تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلِّي، فما أمره القرآن فعله، وما نهاه عنه تركه).

الإسلام دعوة التسامي نحو مقامات السلوك الحضاري الرفيع في شكله ومضمونه، وهجر أخلاق الجاهلية وعوائدها، والارتفاع إلى مستوى المسؤولية الرسالية في أداء الواجب، بما يتطلبه من احتساب وصبر وحلم وعفو وإحسان، ودأب على الجد في تبليغ الدعوة، والعمل على تجسيد أطروحاتها في نموذج اجتماعي متميز، تستوعب به الطموحات الإنسانية في حياة متوازنة كريمة[٢].

بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه، فانتدب رجلان إلى النبي ﷺ فقالا نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت وما أنت وبما جئت؟ قال: أنا محمد بن عبد الله وأنا عبد الله ورسوله، ثم تلي عليهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠] فأتيا أكثم فقالا له ذلك، قال: أي قوم إنه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامها فكونوا في هذا الأمر رؤوسا ولا تكونوا فيه أذنابا[٣]، وتلى رسول الله ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡۖ ﴾ فقال مفروق:

(١) التفسير ٨ / ١٨٩.
(٢) منهج النبي في حماية الدعوة ص: ٣٠١ الطيب برغوث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط الأولى١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١ / ٢٠٩.

والله ما هذا من كلام أهل الأرض، ثم تلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ فقال مفروق دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال(١).

وأسس الأخلاق ومكارمها التي التزمها الصحابة سلوكاً عملياً قالها جعفرﷺ: وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر، وأمرنا بالصلاة والصيام والصدقة وصلة الرحم، وكل ما يعرف من الأخلاق الحسنة ...(٢)، ومنها تذكر المعروف وشكر أصحابه عليه، قال ﷺ في أسارى بدر:" لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له"(٣)، وقدم وفد النجاشي عليه ﷺ قام يخدمهم، وقال: " إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، فإني أحب أن أكافئهم "(٤).

ومن أخلاقية الدعوة في تعامله ﷺ مع من ناصبوه العداء لما خرج مهاجراً خلف علياً ليرد للناس أماناتهم رغم إيذاؤهم له وأصحابه، ولو شاء لأخذها مقابل ما ألحقوه بهم، من مصادرة للأموال والممتلكات، وتجريدهم من حقوقهم، لكنها أخلاق الدعوة، ولم يدع الإسلام، أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أماً من الأمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر، واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبل السعي ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تفنى(٥)، ويمكن اجمال أخلاقية الدعوة في النقاط التالية:

أ. الدعوة إلى مكارم الأخلاق والتخلق بها كما في صدر سورة المؤمنون، ووصايا الرسول ﷺ: " أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(٦).

ب. تحريم الكبائر: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ...﴾ [الأنعام: ١٥١].

ت. نبذ أخلاق الجاهلية وتقاليدها: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ [الماعون: ١ – ٣].

(١) الخصائص الكبرى للسيوطي ص: ٣١٢، باب في تعدد الإسراء والنكات فيه.
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٩٣، رقم" ٨٢" باب القول في إيمان المقلد.
(٣) صحيح البخاري ٤ / ١٤٧٥، رقم "٣٧٩٩" باب شهود الملائكة بدراً، المطعم سعى في نقض صحيفة المقاطعة، ودخل النبي مكة في جواره بعد رحلته للطائف.
(٤) شعب الإيمان ١١ / ٣٨١رقم" ٨٧٠٤" .
(٥) رسالة التوحيد الإمام محمد عبده ص: ١٦٤ دار المعارف ، القاهرة ط الثانية.
(٦) سنن البيهقي ٢/ ٥٠٢ رقم " ٤٤٢٢" باب الترغيب في قيام الليل.

المطلب الخامس: العمل على حد ضغوط القوة المضادة

حاول المعارضون استئصال الدعوة بكل أسلوب، ولابد من مجابتها والحد منها، فكان أولها التزام التوجيه الرباني بعدم سب آلهتهم ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ثانياً: الرفق في الحوار ولين المناقشة في الدعوة: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

ثالثاً: المشاركات الاجتماعية، صنع عقبة بن أبي معيط طعاما ودعا النبي ﷺ وأشراف قريش، فلما قرب الطعام أبى رسول الله ﷺ أن يأكل فقال ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فأكل ﷺ من طعامه، فأخبر الناس أبيا بمقالة عقبة، فقال يا عقبة: صبوت؟! قال: والله ما صبوت ولكن دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم، والشهادة ليست في نفسي[1]، فمشاركته ﷺ بغرض عرض دعوته وتحسين صلته بمخالفيه، والحد من ضغوطهم.

رابعاً: انتهاز فرص التبليغ خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفا هنداً ومعاوية فلقيهم رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان: انزل يا معاوية حتى يركب محمد، فنزل عن الحمارة، فركبها رسول الله ﷺ فسار أمامهما هنيهة، ثم التفت إليهما فقال: يا أبا سفيان بن حرب، ويا هند بنت عتبه والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار، وإن ما أقول لكم حق وإنكم أول من أنذر، ثم قرأ ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ حتى بلغ ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١ – ١١] فقال له أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟! قال: نعم، ونزل رسول الله ﷺ عن الحمارة، فأقبلت هند على أبي سفيان فقالت: ألهذا الساحر الكذاب أنزلت ابني قال والله ما هو بساحر ولا كذاب[2].

فرسول الله ﷺ لما واتته فرصة لتبليغ الدعوة، عرضها ترغيبا وترهيبا، فتحاً لقناة الحوار وتخفيفاً لوطأة اضطهاد ومحاربة الدعوة، وآتي الموقف ثمرته حين مال قلبه ولسانه – مع أنه لم يسلم - فقال: والله ما هو بساحر ولا كذاب.

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٥٠٨، نور اليقين ١/ ٣٤ للخضري، دار المعرفة، بيروت ط الأولى.

(٢) المعجم الأوسط ٦ / ٣٦١، مجمع الزوائد ٦ / ١٧ وقال الهيثمي: حميد بن منهب لم أعرفه وبقية رجاله ثقات، كنز العمال ١٣/ ٦١٣، تاريخ دمشق ٢٣/ ٤٤٠.

المطلب السادس: دحض حجج المعارضين وتصحيحها:

لا يرد عادية الدعاوى الكاذبة سوى الإعلام الصادق، ومواجهة الحجة بالحجة، والرد على كل سؤال طرح، ولم يقف الدعاة مكتوفي الأيدي أمام الشبهة والطعون في الدعوة والدعاة، بل فندوها وأزالوها من جذرها حتى لا يشتت الفكر، أو تؤدي إلى انصراف الناس، ببيان الحقائق اليقينية الثابتة.

فكان الرد على رفض البعث بأن ظلمة ماتوا لم يلقوا جزاءهم، ومظلومين لم يُنتصر لهم، وصالح يموت قبل أن ينال ثواب صلاحه، ومسيء يموت بلا معاقبة، فإن لم يكن بعد الموت يوم يؤخذ فيه من الظالم للمظلوم، ويجزى الصالح والمسيء لاستوى الفريقان، ولا يبني الله ﷻ نظام خلقه علي هذا: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥ – ٣٦]، ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

ورد على دعوى بشريته ﷺ بقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ﴾ [الأنعام: ٩١]، وكون الرسول ملكاً لا يفي بغرض الرسالة فالبشر لا يمكنهم التأسي بالملائكة: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا ﴾ [الأنعام: ٩].

ورد دعوى أن محمداً ﷺ شاعر بقوله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٦] والنبي ﷺ لا يهيم في الأودية كما يهيم الشعراء، بل يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، ولا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر والشعراء منه، والذين اتبعوه متقون وصالحون في أخلاقهم وأفعالهم، وليست عليهم مسحة غواية في أي شأن من شئونهم.

ورد ادعاء أن له رئياً من الجن بقوله: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١

– ٢٢٣]، أي إنها تنزل على الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جربتم عليه كذباً، ولا وجدتم فيه فسقاً، فكيف تقولون إن القرآن من تنزيل الشيطان؟

ورد على أسئلة التعجيز بنزول سورة الكهف، وفيها قصة أصحاب الكهف، وذي القرنين، وأجاب سؤالهم عن الروح بقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهذه الردود كافية لإقناعهم بأن محمداً ﷺ رسول حقاً، لو أرادوا الحق، ولكن أبى الظالمون إلا كفوراً.

المطلب السابع: الثبات والاستعصاء على المساومة والاستدراج

الثبات يظهر حقيقة الدعوة، وأثرها في أتباعها وثقتهم بالطريق الذي يسيرون عليه، وهو عنصر مهم في للنجاح، وبدونه لا تبقى دعوة ولا ينعقد لها نصر، من السهل أن يتحمس رجل لدعوته، ويعمل على نجاحها، فإذا طال به الطريق، ورأى التكاليف مرهقة، انقلب على عقبيه، ودعوة الله لا تنتشر إلا بالمخلصين الذين يثبتون أمام المحن والابتلاءات، ويغالبون العقبات، بلا كلل ولا ملل، ولا انقطاع أو فتور.

قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، الصبر تربية للنفوس وإعداد لها، فلا تطير مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار أمام الشدة، حتى تنقشع وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسرا، وصمد الرسول ﷺ والصحابة في وجه محاولات الاحتواء المختلفة، والضغوط التي تعرضوا لها، وكان ثباتهم صخرة تحطمت عليها آمال وطموحات القوى المضادة، ولم تفلح المعارضة رغم ضراوتها أن تثنيهم عن دعوتهم قيد أنملة، فساروا نحو هدفهم المنشود وهو التبليغ، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فقال رسول الله لعمه: "لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا بن أخي فأقبل عليه، فقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا"[(١)].

وأبو بكر ﷺ وقف خطيبًا مبلغاً فضربوه بالنِّعال، وحُمِل إلى بيته بين الحياةِ والموت، فما أثناه ذلك عن دينه، وابنته أسماء رضي الله عنها صمدت في وجه فرعونِ الأمة - أبو جهل - قالت: "لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنتَ أبي بكر؟ فقلت: لا أدري- والله - أين أبي، فرفع أبو جهل يده - وكان

(١) ضعيف، السلسة الضعيفة ٢ / ٣١٠، رقم " ٩٠٩ " محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض.

فاحشًا خبيثًا - فلطم خدِّي لطمةً طرح منها قِرطي"[١]، فما أثناها ذلك عن دينها. وعُذِّب بلال ﷺ ببطحاء مكة فما أثناه ذلك عن دينه، وابن مسعود ﷺ صدَح بالقرآن فأوجعوه ضربًا وهو ماضٍ يقرع آذانهم بآيات القرآن الكريم، وأشفق عليه إخوانه الصحابة ﷺ فقال لهم" ما كان أعداء الله أهونَ عليَّ منهم الآن، ولئن شِئتم لأغادينَّهم بمثلها غدًا"، قالوا: "حسبُك، فقد أسمَعْتهم ما يكرهون"[٢].

ومن قبل ثبت آل ياسر ﷺ في أروعَ أمثلة للصمود والثبات لم تَلِنْ لهم قناة، ولم يَخُرْ لهم عزم، ونماذج الصمود والثبات في وجه طواغيت الأرض لم تنقطع، حتى مكَّن الله تعالى وانتشروا في ربوع الأرض، مُبلِّغين للإسلام وفاتحين للبلدان، فدان لهم العربُ والعجم.

المطلب الثامن: الدعاء لتدخل العناية الإلهية:

الدعاء سلاح المؤمن الصادق ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]، واستجابة الله دعاء من دعاه تأييد له، ودلالة خير وعلامة صدق الداعي في دعائه، وربما تأخرت الاستجابة لحكمة يعلمها الله تعالى، إلا أنه يدل على أهمية اللجوء والتضرع إلى الله تعالى، ودعاؤه ﷺ واحد من حالين:

الدعاء بهدايتهم دعا لعمر فقال: " اللهم عليك بأحب الرجلين إليك عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب"[٣]، وقال: " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[٤].

الدعاء عليهم لعلهم يرجعون: استعصوا على رسول الله فدعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠] فأتي رسول الله ﷺ، فقيل يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت[٥].

ومر رسول الله ﷺ بالحكم فجعل يغمز به فرآه ﷺ فقال: " اللهم اجعل به وزغا" فرجف وارتعش مكانه، وفي رواية فما قام حتى ارتعش[٦].

وكان النبي ﷺ لشدة إيذاء هذا الرجل يدعو ربه قائلا: اللهم اكفنا ابن العدوية[٧].

(١) كنز العمال ١٦ / ٦٨١، رقم " ٤٦٣١٧"، سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٩٠.
(٢) فضائل الصحابة ٢ / ٨٣٧، رقم "١٥٣٥" الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، تحقيق د. وصي الله محمد عباس، السيرة لابن هشام ٢/ ١٥٦.
(٣) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٨٩، رقم " ٤٤٨٥" مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
(٤) صحيح البخاري ٣ / ١٢٨٢عن عمر رقم " ٣٢٩٠" .
(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٨٢٣رقم " ٤٥٤٤" صحيح مسلم ٨/ ١٣١، السيرة الحلبية ١/ ٤٧١.
(٦) الخصائص الكبرى ٢ / ١٢٢، باب ذكر معجزاته ﷺ ، السيرة الحلبية ١/ ٥٠٩.
(٧) دلائل النبوة للبيهقي٢/ ٣٧، رقم "٤٧٢" سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٠٥.

المبحث الثاني: سبل المحافظة على الدعوة والمؤمنين بها:

درايته ﷺ بطبيعة المعارضة جعلته ينتهج سبلاً توجه المؤمنين وتواجه خصومهم وتحققت أهداف الدعوة، بتوجيهات رشيدة، تعرضها المطالب التالية:

المطلب الأول: اصطفاء المدعوين وكسب الأنصار:

قامت الدعوة على اصطفاء المدعوين الشخصي، واختيار العناصر الصالحة أن تكون لبنات تحمل تكاليف هذه الدعوة، فكانت كوكبة نيرة دعت الخلق إلى الله وأقامت دولة الإسلام، بحضارتها التي لا مثيل لها، وبدأ الاصطفاء ببيت رسول الله ﷺ فأسلمت زوجه خديجة وابن عمه علي ومولاه زيد وأم أيمن.

وأسلم أبو بكر ﷺ وكان رجلا مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً، تاجراً ذا خلق حسن، رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فدعا عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، فانطلق بهم حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فكانوا النفر الذين سبقوا في الإسلام، وكانت الدعوة لمن تعرف ملكاته وصفاته، عدهم ابن هشام أكثر من أربعين يمثلون بطون قريش وقطاعات المجتمع، عدا الموالي والضعفاء، ولم يكونوا ضعفاء الناس، أو أرقاء أرادوا استعادة حريتهم وما شابه ذلك، فمن أشير إليه بالفقر والاستضعاف ثلاثة عشر، هذا عدد ليس أكثرية، فمن أسلم وشرح الله صدره فيهم الغني والفقير، السيد والرقيق[1].

ودعاؤه ﷺ : " اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك" ، دلالة على حسن الاختيار وأهمية الاصطفاء، فالرعيل الأول الذين تم اختيارهم واصطفاؤهم ثبتوا على الدعوة ولم يتخلوا عنها رغم الاضطهاد والتعذيب والصعاب والشدائد التي واجهتهم، والمهاجرون إلى الحبشة (٨٣) رجلاً، ١٨امرأة، وقيل ٩٢رجلا، فإذا أضيف إليهم من ظل بمكة، ومن أسلم من القبائل المجاورة كغفار وغيرها، أدركنا مدى نجاح هذه الطريقة وما أحرزته من تقدم عددي ونوعي، وفيه تحقيق لشمول الدعوة وعموم الرسالة وعالميتها، فهذا مجتمع ضم القرشي إلى جوار الرومي والحبشي والفارسي تجمعهم عقيدة واحدة، ويظلهم قانون واحد.

---

(١) فهم عدا ما ذكر من بني هاشم: جعفر بن أبي طالب، عبيدة بن الحارث، عدي: سعيد بن زيد وزوجه، أمية: خالد بن سعيد، حاطب بن عمرو، عبد الله بن جحش زهرة: عمير بن أبي وقاص بني مخزوم: أبو سلمة، عياش بن أبي ربيعة سهم: خنيس بن حذافة وزوجه. جمح: حاطب وحطاب ابنا الحارث وامرأتيهما، عثمان بن مظعون وابنه. عامر: أبو عبيدة بن الجراح، سليط بن عمرو. أشخاص متفرقون: صهيب، مسعود بن ربيعة بن عمرو.. [الإصابة ٤/ ١٧١، ابن حجر، دار الجيل – بيروت ط الأولى ١٤١٢هـ تحقيق علي محمد البجاوي، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٠٥].

المطلب الثاني: اتخاذ التدابير الوقائية:

اتخذ ﷺ ما أمكنه من تدابير وقائية للمحافظة على الدعوة، والمؤمنين بها من كيد المعارضين، والمتربصين بها، ومن مظاهر اتخاذ التدابير الوقائية:

١. بيت رسول الله كان المكان الآمن، مر صهيب على دار رسول الله ﷺ فرأى عمار بن ياسر، فقال له عمار: أين تريد يا صهيب قال أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه، قال عمار: وأنا أريد ذلك فدخلا على رسول الله ﷺ فجلسا وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما حفظ من القرآن، فتشهدا ثم مكثا عنده يومهما ذلك حتى أمسيا وخرجا مستخفيين(١).

٢. بيوت الصحابة، فدار الأرقم كانت مركزا للدعوة والعبادة والتربية، لبعدها عن الأعين، اجتمع فيها ﷺ مع الصحابة يتلو عليهم القرآن، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وبقيت مجهولة وكانت في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، فالأرقم لم يكن معروفا بإسلامه، وهو من بني مخزوم منافسي بني هاشم، فلا يخطر على بال أحد أن يكون اللقاء في داره، وكان صغير السن، ويوم يفكرون في البحث عن مركز التجمع سيتجهون لبيوت كبار السن، ولم تداهم قريش ذات يوم هذا المركز، وأقصى ما وصلت إليه شكها أن يكون اللقاء في دار عند الصفا ولم يرد ما يدل على معرفتها إلا في إسلام عمر ﷺ في السنة الخامسة(٢).

وفي إسلام أبي ذر وما فعله عليّ ﷺ معه دلالة على هذا، ولما ضرب المشركون أبابكر وأراد رؤية رسول الله قالت أم جميل: انتظر حتى تهدأ الرِّجل ويسكن الناس، لأنه أنسب وقت للتحرك لانعدام الرقابة من أعداء الدعوة.

٣. أمر ﷺ من يسلم أن يكتم إسلامه، ومن يأتيه مسلما من قبائل العرب أن يعود إلى قبيلته، وينتظر حتى يظهر الله دينه، ويدعو أهلها في هدوء، حتى لا يلتفت إليه فتقتل الدعوة في مهدها(٣).

٤. استخدام أسلوب التعمية: ذهب رسول الله إلى الطائف راجلاً حتى لا تُعلم وجهته، وحتى لا يظنوا أنه ينوي سفراً لجهة ما، فيعملون على اعتراضه ومعاكسته، واختار زيداً رفيقاً لأنه لا يثير الشك لقوة الصلة بينهما، وحرص على عدم شيوع الخبر حين أراد العودة، فطلب من زعماء ثقيف أن يكتموا ما حدث.

كذلك الحال في بيعة العقبة الأولى والثانية وغيرها من مواقف، كالهجرة بما فيها من مواقف ودروس وعبر(٤).

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٢٢٧ ذكر البعض أن كانت دار الأرقم، واعتمدت هذه الرواية لأن وقوفهما أمام دار الأرقم يتنافى مع السرية المذكور في العنصر، تاريخ دمشق ٤٣ / ٣٥٩.

(٢) المنهج الحركي للسيرة ١ /٤٨، ٤٩ منير محمد الغضبان، بتصرف، دار المنار الأردن .

(٣) عمرو بن عبسة أتاه ﷺ فأسلم فقال: أتبعك يا رسول الله قال: لا ولكن الحق بقومك فإذا أخبرت أني قد خرجت فاتبعني[صحيح ابن خزيمة١ / ١٢٨، المستدرك ١/ ٢٦٨].

(٤) راجع منهج النبي في حماية الدعوة ص: ٤١٦، السيرة النبوية على الصلابي ١/ ٢٣٧.

٥. السماح ببعض الرخص للضعفاء: أذن رسول الله لعمار بن ياسر فقال له إن عادوا فعد، وسمح للصحابة بالهجرة إلى الحبشة.

يتضح من هذا أن الدعوة كانت معروفة للناس، والتخفي كان في العمل لها والترتيب لإذاعتها، وهذا ما يسمى بمرحلة الإعداد وتكوين الأنصار، ويمكن القول إنه ﷺ تجنب الصدام المباشر مع المعارضين حتى تقوى شوكة الدعوة.

المطلب الثالث: التربية الروحية والسمو بالنفس البشرية:

كانت تربية رسول الله ﷺ للصحابة شاملة، وعلى المستوى الذي يجردهم من كل هوى وشائبة، لتخلص النفوس لله رب العالمين، وكانت إعداداً وسط ظروف المجتمع الجاهلي، فكان الأمر بالصلاة والمحافظة عليها وقيام الليل، أفضل الوسائل التي تم اعتمادها، في هذه الفترة ولا تزال.

فالإيمان له قوة إذا تمكنت من شغاف القلب وتغلغلت في أعماقه تكاد تجعل المستحيل ممكناً، من أجل هذا كان التوجيه نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزمل: ١-٤]، فالآيات تأمره ﷺ أن يخصص شطرًا من الليل للصلاة، وترشد إلى حاجة الدعاة لقيام الليل، والدوام على الذكر، والتوكل على الله في جميع الأمور، وضرورة الصبر المصحوب بالهجر الجميل، والاستغفار بعد الأعمال الصالحة.

فقام النبي ﷺ وأصحابه معه قريبًا من عام، حتى ورمت أقدامهم، فنزل التخفيف عنهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [المزمل: ٢٠]، كان امتحانهم في الفرش، ومقاومة النوم، ومألوفات النفس، لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس، تمهيدًا لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، بإعداد روحي عالٍ لمن اختارهم الله لحمل رسالته، وائتمنهم على دعوته، وهي مهمة لا يقدر على تنفيذها إلا من ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

وقيام الليل أثبت أثرًا في النفس مع سكون الليل وهدأة الخلق، حين تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر، والمناجاة بعيدًا عن علائق الدنيا وشواغل النهار، وبذلك يتحقق الاستعداد لتلقي الوحي الإلهي ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل:

٥]، ظهر أثر هذا الإعداد للصحابة في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد وإنشاء دولة المدينة، وفي إخلاصهم العميق للإسلام وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا الناس ونشره بين العالمين(١).

ولأن تربية النفوس ليست سهلة فقد استمرت فترة العهد المكي كله، لتعطي فرصة أوسع للتفكر والتأمل والتدبر، فكان مستواهم رفيعاً نفسياً ووجدانياً، فهم خير القرون ولا يستوى من أنفق من قبل الفتح وقاتل بمن أسلم بعدهم.

وإجمال صور التربية يمكن جمعه في ثلاث نقاط هي:

١. الدعوة إلى التأمل في الكون المنظور، والكتاب المسطور (القرآن).
٢. التأمل في علم الله المحيط بالكون وما فيه (عالم الغيب والشهادة).
٣. عبادة الله بكل ما فيها من صلاة وصيام وقراءة قرآن وذكر.

المطلب الرابع: ضبط النفس والتحمل حتى يتم البلاغ:

حماية للدعوة والمحافظة على منجزاتها، وهو شاق على النفس البشرية يحتاج إلى تدريب وصبر، وهناك مواقف وقعت بسبب عنف المواجهة وشدة التحدي والاستفزاز، منها أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستخفون بصلاتهم وبينا سعد بن أبي وقاص في شعب من شعاب مكة في نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم المشركون فنافروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلا منهم بلحى جمل فشجه فكان أول دم أريق في الإسلام(٢).

وكان التوجيه بالصبر كثيراً فطريق الدعوة طريق الصبر، وأول ما يستوجب الصبر الرغبة الملحة في انتصار الدعوة، ثم إبطاء النصر بل إبطاء أماراته ثم ضرورة التسليم لهذا والرضى به والقبول! قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، والآية تحذر أن يحدث سباب بين المسلمين والمشركين أو غيرهم بسب آلهتهم، الأمر الذي يساعد على توتر الأعصاب، ويدعو للمواجهة، التي كان النبي ﷺ يعمل على تفاديها في هذه المرحلة، وظهر أثرها في الحصار الشامل فكان انضباط المسلمين وعدم خروجهم على أعراف مجتمعهم وقراراته الظالمة، شاهد عملي على هذا الأمر.

وهنا تلحظ استمرارية الأمر بالصبر والدعوة إلى التحلي به في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الـــروم: ٦٠] ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث ١/ ٢٣٩.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٣ / ٧٤، مختصر السيرة ص: ٨٢.

[غافر: ٧٧] ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وعبد الرحمن بن عوف وأصحابه ﷺ أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله كُنَّا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ»[1] وكان الكف لحكمة قدرها الله، يمكن استنباط بعض أسبابها في التالي:

١. كان يراد أولا تطويع النفوس بالصبر امتثالاً للأمر، وخضوعا للقيادة، وانتظاراً للإذن، وكانوا شديدي الحماسة، لا يصبرون على الضيم.
٢. إعداد الأمة المسلمة للدور المنوط بها يقتضي ضبط الصفات النفسية، وتطويعها بتهدئة الأعصاب المعتادة الاندفاع والحماسة، فاستطاع رجال من طراز عمر في حميته، وحمزة في فتوته أن يصبروا؛ ويربطوا على أعصابهم انتظاراً لأمره ﷺ فوقع التوازن بين الحماسة والتدبر، والحمية والطاعة في هذه النفوس التي كانت تعد لأمر عظيم.
٣. البيئة العربية بيئة نخوة ونجدة، وصبر المسلمين على الأذى، وفيهم من يملك رد الصاع صاعين، مما يثير النخوة ويحرك القلوب نحو الإسلام؛ فبعد المقاطعة في الشعب، ثارت نفوس ومزقت الصحيفة التي تعاهدوا فيها على المقاطعة، وانتهى الحصار تحت تأثير هذا الشعور.
٤. لعل الرسول ﷺ لم يشأ أن تثار حرب دموية داخل البيوت، فالمسلمون حينها كانوا فروعاً من البيوت، التي تؤذي أبناءها وتفتنهم عن دينهم؛ ولم تكن هناك سلطة موحدة تتولى الإيذاء العام، ولو أذن للمسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم، لقامت معركة في كل بيت، ولوقع دم في كل أسرة، فتتفتت البيوت، وتشعل النار فيها من داخلها.
٥. المسلمون كانوا قلة آنذاك، وقد يأتي القتل عليهم لو تعرضوا لقتال المشركين، في صورة جماعة ذات قيادة حربية ظاهرة. فشاء الله أن يكثروا، وأن يتحيزوا في قاعدة آمنة، ثم أذن لهم بعد في القتال[2].

المطلب الخامس: إرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية:

عاش رسول الله ﷺ معهم الحياة بكل جوانبها الطاهرة النظيفة، تاجراً وحكماً بينهم في مدلهمات الأمور، واشترك معهم في حلف الفضول، وكان إيجابياً معهم في الحياة الفاضلة وعظائم الأخلاق، مبتعداً عن الحياة الفاسدة ومصححاً لفسادها ساعياً لإصلاح حالهم وإبعاد الشرور عنهم، ومن الأسس التي تم إرساؤها:

المساواة في الأصل الإنساني ونقض قيم المجتمع الجاهلي، فقد كانوا يعتقدون أن مواليهم وفقراء المجتمع ومساكينه، ليسوا مثلهم أو خيراً منهم عند الله،

(١) سنن النسائي٦/ ٣٢٥، السنن الكبرى للبيهقي١١/٩عن ابن عبَّاس.
(٢) في ظلال القرآن١/ ١٥٩، ١٦٠باختصار وتصرف.

فنهى عن التفاخر والتعاظم بالآباء، والمآثر والأمجاد قال رسول الله ﷺ: " إن الله أوحى إليَّ أن تواضعُوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغ أحدٌ على أحد"(١).

ومنها ترك عصبية الجاهلية ولزوم جماعة المسلمين، قال ﷺ : « ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاش من مؤمنها ولا يفي لذى عهد عهده فليس منى ولست منه »(٢).

ومنها المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وعدم الاعتراف بالامتيازات الطبقية أو النفوذ الموروث فأساس التفاضل التقوى والعمل الصالح: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ "سلمان منّا آل البيت"(٣)؛ فالعدالة الاجتماعية والمساواة أصيلة في الشرع الإسلامي، ورغم أهميتها لم يعمل بها في الحضارة المصرية أو الفارسية أو الرومانية؛ وكان السائد تقسيم الناس طبقات اجتماعية، لكل منها ميزة وأفضلية.

وأتت الثمار فتأسست علاقات اجتماعية جديدة، قامت على روح الأمة بدل القبيلة، والإنسانية بدل الطبقية، والعالمية بدل العصبية، وما يستلزمه ذلك كله من حرية ومساواة وعدل، وأخوة بين البشر، وانطلقت تؤسس منظومة تجاوزت القبيلة والطبقة والدم، التقى فيها صهيب الرومي، مع بلال الحبشي، إلى جوار أبي بكر العربي ..إلخ التقوا جميعا من مختلف القبائل والأسر والطبقات والأعمار، في ظل علاقات اجتماعية قامت على حفظ الكرامة الإنسانية، وضمان حقوق البشرية في الحرية والعدل والمساواة(٤).

المطلب السادس: الاستفادة من قوانين المجتمع وأعرافه:

كان رسول الله ﷺ على دراية بقوانين المجتمع وسلطان القبيلة ودورها، وتكيف معها واستفاد منها بما يخدم الدعوة، ولا يؤثر على وجهتها وثوابتها، فبدأ بدعوة أقاربه أملاً في إسلامهم، ووقوفهم إلى جواره، لئلا يُقال تركهم وذهب لغيرهم... إلخ وكانت الاستفادة من خلال:

١. <u>قانون الحماية:</u> فأعراف البيئة تلزم العربي نصر الأخ وابن العم، ويلحقه العار إن قعد عن نصرتهم، وهي التي دفعت قرابة النبي ﷺ باستثناء أبي لهب إلى مؤازرته ونصرته ولو لم يؤمنوا بدعوته.

فوقف أبوطالب يسانده، منذ اللحظة الأولى وقال له: ما أحب إلينا معاونتك ومرافدتك وأقبلنا لنصحك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون

(١) صحيح مسلم ٨/ ١٦٠رقم " ٧٣٨٩" باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا.
(٢) صحيح مسلم ٦ / ٢٠ رقم " ٤٨٩٢" باب الأمر بلزوم الجماعة.
(٣) المستدرك ٣ / ٦٩١ رقم "٦٥٣٩" باب ذكر سلمان.
(٤) منهج النبي في حماية الدعوة ص : ٣١٦، بتصرف.

وإنما أنا أحدهم، غير أني والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أُمِرت به فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أني لا أجد نفسي تطوع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على ما مات عليه[1].

وساند أبا سلمة بن عبد الأسد لما استجار به، ومشي إليه بنو مخزوم فقالوا: يا أبا طالب منعت منا ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟! فقال: إنه استجار بي وهو ابن أختي وإن أنا لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي[2].

ومنها حصار بني هاشم مؤمنهم وكافرهم في الشعب، ثلاث سنوات، وقال أبو طالب يبين مدى حمايته لرسول الله، رغم خلاف العقيدة:

ونُسلمه حتى نصرع حوله ... نُذهل عن أبنائنا والحلائل

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ... ربيعُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

وقفت قريش صفاً ووقف بنو هاشم يدافعون عن رسول الله ﷺ وكذا وقفت بنو تيم من أبي بكر، لما ضربه المشركون ضربا شديدا دخلوا المسجد فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ...إلخ الموقف[3].

وبهذا وجه الإسلام العصبية واستفاد من وجودها واستعلى على المصلحة الجزئية وهذبها، فالوشيجة التي يتجمع عليها الناس، ليست وشيجة أرض أو قوم أو لون ولغة قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] وصار وطن المسلم دار الإسلام، التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها.

٢. <u>الجوار:</u> الإجارة من قبيلة لقبيلة، والحماية من القبيلة لأبنائها[4]، ومما يؤكد قيمة الجوار، أنه عند عودة النبي ﷺ من الطائف بعث إلى المطعم بن عدى : إني داخل مكة في جوارك فأجابه إلى ذلك، فدخل رسول الله ﷺ مكة وتسلح المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، وقام المطعم فنادى يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يؤذه أحد منكم، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل فدخل رسول الله ﷺ المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله والمطعم بن عدى وولده مطيفون به ﷺ، وبنوه كانوا ستة أو سبعة، وقالوا لرسول الله ﷺ طف واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف مدة طوافه ﷺ وأقبل أبو سفيان على المطعم فقال: أمجير أم تابع؟ فقال: بل مجير، فقال إذن لا

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٢٣ باختصار.

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ١/ ٢٠٤، السيرة لابن كثير ٦٢/٢، سيرة ابن هشام ١/ ٣٧١.

(٣) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ٢٤ /١٥٣ بتصرف.

(٤) المنهج الحركي للسيرة ١/ ١٣٨.

تخفر أي لا تزال خفارتك أي جوارك قد أجرنا من أجرت فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه[١].

إن كان تابعاً فمع النبي يناله ما ينال أتباعه، وإن كان مجيراً تُحفظ له ذمته لأنه منهم، والمطعم بن عدي بهذا الموقف العصيب وأمام معاداة قومه استجاب لطلب محمد بن عبد الله لم يتنصل من الإجارة ووقف موقفا حفظه له التاريخ بتسليح بنيه جميعا وحضوره إلى الكعبة بالسلاح معلنا إجارة محمد ﷺ[٢].

ولما ابتلي المسلمون خرج أبوبكر مهاجرا، حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدِّغنة سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال: أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدِّغنة إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج؛ فإنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدِّغنة فرجع مع أبي بكر فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق. فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة[٣].

وهكذا لم يرفض ﷺ الخدمات التي قدمت في تلك الفترة، مادامت تخدم الدعوة وهكذا كان النبي ﷺ يوظف الأعراف والتقاليد المجتمعية لمصلحة الإسلام، وأفادت الدعوة في عهدها المكي، وكانت مظلة واقية ضد كثير من الهجمات.

المطلب السابع: طمأنة الأتباع ولفت الأنظار إلى الاستخلاف:

الأصل في الداعية ثبات الجنان ورباطة الجأش، يلجأ إليه الناس فيطمئنهم ويبث في قلوبهم الثبات ويبعث النشاط، ويرفع المعنويات بلفت الأنظار إلى غاية الدعوة وهدفها الأسمى، النبي ﷺ جاء خباب ﷺ شاكياً فثبّت النبي ﷺ قلبه ولفت نظره إلى ذلك بتأصل تلك السنة، وذكر له ما لاقاه السابقون من المؤمنين، وأكد له أن نصر الله قادم ولو بعد حين.

قال خباب ﷺ: « ... فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو مُحْمَرٌ وجهه، فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»[٤]، وفيه بيان أن أي مسلم تذهب نفسه حزناً على ما يصيب إخوانه، مطالب ببذل وسعه في سبيل التخفيف عنهم، ولا يتخلى عن شيء من منهجه تفادياً للمواجهة.

---

(١) السيرة الحلبية ٢ /٦١، ٦٢، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٤٤١.

(٢) راجع المنهج الحركي للسيرة ١/ ١٣٩.

(٣) صحيح البخاري ٢ / ٨٠٣ رقم" ٢١٧٥" عن عائشة باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ.

(٤) صحيح البخاري ١٦٤/٧رقم" ٣٤١٦ " باب علامات النبوة .

وكان ﷺ في كل مواقفه يرفع معنويات الصحابة ﷺ، ويذكرهم بالأجر والثواب، ويؤكد نصر الله لهم، مع سعيه عن حلول عملية تخفف من وقع الفتنة عليهم، بعض سفهاء قريش نثر على رأس النبي ﷺ التراب فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكى ورسول الله ﷺ يقول لها لا تبكى يا بنية فإن الله تعالى مانع أباك[1]، وطاف رسول الله ﷺ بالبيت ويده في يد أبي بكر، وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس عقبة ابن أبي معيط وأبو جهل وأمية بن خلف فمر رسول الله ﷺ عليهم فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره فعرف ذلك في وجه النبي ﷺ ... قال عثمان ﷺ ثم انصرف إلى بيته وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: "أبشروا فإن الله ﷻ مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا"، ثم انصرفنا إلى بيوتنا فو الله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر[2].

ولما أراد ﷺ دخول مكة بعد رحلة الطائف قال زيد ﷺ : كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك - كانوا سببا لخروجك وخرجت - تستنصر فلم تنصر؟ فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه[3].

وفي الهجرة قال لأبي بكر ﷺ : "لا تخف إن الله معنا" وفي رواية قال: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما"[4]، وبهذه المواقف تأكد كيف كان رسول الله يدعو أصحابه إلى الصبر والثبات، ويطمئنهم ويجدد فيهم الأمل، ويبعث فيهم النشاط ويقوى في نفوسهم بواعث الثبات.

المطلب الثامن: العمل على تقوية رابطة الصف المسلم:

كانت هناك عدة وسائل اعتمدها النبي ﷺ لتلاحم الصحابة، وتحفظ كيان الجماعة المسلمة المستضعفة، باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على أخوة الدين والتعاون فيما بينهم، وتخفف أعباء المواجهة والصراع بينهم وبين المجتمع المكي، من هذه الوسائل التكافل بنوعيه المادي والمعنوي وأبرز صوره:

أن رسول الله ﷺ كان يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه[5]، خالد بن سعيد بعد أن أسلم قال له أبوه: اذهب يا لكع حيث شئت والله لأمنعنك القوت، فقال له: إن منعتني فإن الله ﷻ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٦٤، السيرة الحلبية ٢/ ٥٠.
(٢) عيون الأثر ١ / ١٣٨، الخصائص الكبرى ص: ٢٣٧.
(٣) الخصائص الكبرى ص: ٢٣٧، السيرة الحلبية ٢/ ٦١، الطبقات الكبرى ١ / ٢١٢.
(٤) صحيح البخاري ٣/ ١٣٣٧، رقم " ٣٤٥٣" باب مناقب المهاجرين، صحيح ابن حبان ١٥/ ٢٨٧، رقم "٦٨٦٩"، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٢٤١.
(٥) أسد الغابة ١/ ٨١٦، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ١/ ١٥٥ للمبرد، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الأولى١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، تاريخ دمشق ٤٤ / ٣١، عيون الأثر ١ / ١٥٩، ١٦٠.

يرزقني ما أعيش به فأخرجه وقال لبنيه: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به، فانصرف خالد إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه ويكون معه(١).

والمؤاخاة حدثت مرتين: الأولى: بين المهاجرين بعضهم بعضا قبل الهجرة على الحق والمواساة، عن زيد بن حارثة ﷺ قال: " إن رسول الله ﷺ آخي بيني وبين حمزة بن عبد المطلب، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة وبين سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله، وبين علي بن أبي طالب ونفسه ﷺ(٢).

وفيه دلالة على عمله ﷺ على تخفيف المعاناة عن الضعفاء والمستضعفين قدر المستطاع، وعمل الميسورون من الصحابة على تخفيف التعذيب أو رفعه عن إخوانهم، بحلول عملية، وربما يصلح أن يسمى بمنهجية فك رقاب المستضعفين، التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب، وشاهده أن أبابكر ﷺ كان ينفق ماله على إعتاق المعذبين من الرقيق(٣)، وسورة المدثر من أوائل القرآن نزولاً لفتت النظر لهذا: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ [الآيات: ٤٢ – ٤٥].

ولما لقي ابن الدِّغنة أبا بكر قال له: إن مثلك لا يخرج ولا يُخرج؛ فإنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، وهذا تأكيد للتكافل بأعمال كانت سببا لمبادرة ابن الدغنة بإعادة أبي بكر، وإعلان جواره له أمام أهل مكة.

ومكث بنو هاشم في الشعب أشد ما يكون البلاء وضيق العيش، لقي أبو جهل حكيم بن حزام ومعه غلام، يحمل قمحا يريد عمته خديجة وهى في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام الى بنى هاشم؟! والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فقال له أبو البختري بن هشام: مالك وماله، فقال أبو جهل: إنما يحمل الطعام لبنى هاشم، فقال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها، خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه فشجه، ووطئه وطئا شديداً، وهاشم بن عمرو بن الحارث العامري ﷺ - أسلم بعد ذلك - أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أجمال طعاما فعلمت بذلك قريش فمشوا اليه حين أصبح وكلموه في ذلك فقال انى غير عائد

(١) المستدرك على الصحيحين ٣ / ٢٧٧رقم "٥٠٨٢" وحذفه الذهبي من التلخيص لضعفه، الاستيعاب ١/ ١٢٥، الطبقات الكبرى ٤/ ٩٥، تاريخ دمشق ١٦/ ٧٠.

(٢) فتح الباري ٧ / ٢٧٠، سبل الهدى والرشاد ٣ / ٣٦٣.

(٣) الاستيعاب ١/ ٢٥٦، أسد الغابة ١/ ٧٠٩، سبل الهدى والرشاد ١١ / ٣١٨.

لشيء خالفكم ثم أدخل عليه ثانيا جملا وقيل جملين فعلمت به قريش فغالظته أي أغلظت له القول وهمت به فقال أبو سفيان بن حرب دعوه وصل رحمه[1].

ومن صور التخفيف التزوج من النساء اللاتي مات أزواجهن أو فتنوا تزوج ﷺ بسودة بنت زمعة بعد وفاة زوجها ورجوعها من الحبشة[2]، ولو رجعت إلى أهلها لفتنوها والقتل والإكراه على الكفر. وبهذه الصور من التكافل وربما بوجود غيرها أيضا أمكن مواجهة حيز كبير من سبل المعارضة، وثبت الصحابة ﷺ أمام محاولات كسر صمودهم وثباتهم، وهذا التكافل الاجتماعي كان من عناصر ثبات المسلمين، وقوة وحدتهم، وبهذه الروح تم الوفاق بين الصحابة في مكة والمدينة بعد ذلك، والبذل والعطاء ظاهرة تحتاجها الأمة، وبها بنيت دولة التوحيد وصنعت حضارة الإسلام الرائدة، وكان هذا التكافل قمة من قمم الخير والعطاء، وأصبح المستضعفون بالإسلام أصحاب عقيدة وفكر، يناقشون وينافحون ويجاهدون من أجل دينهم وعقيدتهم، وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا التكافل الذي يحدث التعايش والتآزر بين أبناء الأمة.

المطلب التاسع: البحث عن وطن بديل للدعوة:

تبليغ الدعوة هدف الإسلام وربما ضاقت بعض الأوطان على رحابتها بالدعاة إلى الله، لمحاصرة المعارضين لهم من كل جهة، فيمنعوهم من تبليغ دعوتهم، وقد لا يقف الأمر عند المنع والتضييق بل يتعداه إلى التآمر بالقتل أو الإخراج والنفي من الديار لردهم إلى الجاهلية التي أنقذهم الله منها.

وماذا يفعل الداعية إزاء الأوضاع الحرجة؟ هل يستسلم ويركن متكئاً على تعليلات واهية؟ الجواب لا، فرسول الله ﷺ اجتهد في البحث عن مكان آمن يبلغ فيه دعوته يتخذه وطنا بديلاً، خروجا بالدعوة من الحصار المفروض عليها، واجتهد في المحافظة على سرية ذلك حتى لا يفسد المعارضون المفاوضات أو يطاردوا الدعاة.

فبحث عما يخفف عن أتباعه ما هم فيه، فارتاد أسواق العرب وأماكن تجمعهم داعياً للإيمان بالله تعالى ونبذ عبادة الأصنام، وباحثاً عن موقع تنطلق منه الدعوة، ومضى إلى ثقيف، لا يَدَع أحداً إلا كلمه، سعياً للدعوة إلى الإسلام، وطلب الحماية والنصرة، وهو المراد من إيجاد ملاذ آمن للدعوة، فتغيير مركز الانطلاق، لابد له من قاعدة صلبة للانطلاق حتى يقبله بقية العرب، وثقيف لا تقل أصالة عن قريش في الحسب والنسب والمنعة، لتكون البديل عن مكة.

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ١/ ١٩٥، الإمام الكلاعي، عالم الكتب - بيروت – ط الأولى ١٤١٧هـ تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، الروض الأنف ٢/ ١٣١.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٧ / ٧٠، رقم " ١٣٢٠١" باب تسمية أزواج النبي ﷺ دار الباز - مكة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الأعلام للزركلي ٣ / ١٤٥.

وبعد رجوعه من الطائف، كثف عرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح الإسلام ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله ﷻ، وصاحبه أبو بكر الصديق، الرجل المتخصص في أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان "غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر ﷺ يسأل وجوه القبائل ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله ﷺ ويعرض دعوته"(١)، وجعل يقول: من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني، حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟(٢).

وهذا طلب للانتقال والحماية حتى يتمكن من تبليغ الدعوة، ولما بلغ طغيان المعارضين مبلغا فاق قدرة بعض المسلمين أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فقال: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون إليها – الأولى والثانية - مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم.

والمهاجرون إلى الحبشة غالبيتهم من ذوي القوة والمنعة، فجعفر ابن أبي طالب – على سبيل المثال- من بني هاشم أخ لعلي رضي الله عنهما ومصير عليّ كجعفر، كذلك عثمان بن عفان ﷺ ، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ، ورجع معظمهم في العام السابع للهجرة عام فتح خبير، والفترة الزمنية طويلة بين هجرتهم للحبشة، وعودتهم بعد الهجرة للمدينة(٣).

وبلال وغيره رغم أنه أعتق ظل في مكة فترة، وكان هو وأصحابه أحق بالهجرة والنجاة، والسؤال لماذا هاجر بعض الأقوياء وبقي كثير من الضعفاء، ولعل الإجابة تكمن أن مصلحة الدعوة كانت تقتضي ذلك، أن يهاجر المستطيع على الهجرة، والمضطهد القادر عليها كذلك، والقوي الذي يمكنه نقل الدعوة من بيئة لأخرى.

ولعل نتائج هذه الهجرة تؤكد هذا، وذلك من وصول وفد نصارى الحبشة وغيرهم إلى مكة لفهم أوسع عن الإسلام ومعرفة أقرب من الرسول ﷺ بعد سماعهم من جعفر وأصحابه ﷺ ولذلك حرص الرسول ﷺ على اختيار نوعيات معينة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإسلام وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام العالمي بعدالة قضية المسلمين على نحو ما يتم في الدول الحديثة من تحرك يشرح قضاياها وكسب الرأي العام إلى جوارها

---

(١) الأنساب للسمعاني، ٣٦/١، إمتاع الأسماع المقريزي ٣٠/١، ٣١.

(٢)يقول المقريزي: ثم عرض ﷺ نفسه على القبائل أيام الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع، واستقصى الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة، كندة وبني حنيفة ثم بني عامر، سبل الهدى والرشاد ٢ / ٤٥٥، السيرة النبوية للصلابي ١ / ٣٤٧.

(٣) راجع السيرة النبوية للصلابي ١/ ٢٥٧.

ولما بقي ﷺ هو ومن يمكنه البقاء في مكة يواصلون الدعوة، ضاق المعارضون ذرعا ولم يتحملوا بقاءه بين أظهرهم فعزموا على قتله، ووضعوا خطة لذلك وشرعوا في تنفيذها، عندها لم يعد البقاء في مكة يرجى منه تحقيق نفع للدعوة، وأصبح البقاء من قبيل الإلقاء باليد إلى التهلكة، أو من قبيل تقديم حب الأوطان والديار على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وكلاهما ممنوع، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وبنظرة إجمالية تجد رسول الله ﷺ ظل يدعو بمكة ثلاث عشرة سنة ولم يتركها مع أول صدود أو تأخر وإبطاء في الاستجابة، مما يبين أن من المهم في الدعوة التأني وعدم الاستعجال، وأن على الداعية الصبر والبذل وألا يأل جهداً، أو يدخر وسعاً في تبليغ دعوته، وأن يقدم ما دام هناك تقبّل واستجابة، ولو كان بطيئا أو ضعيفا، فالداعية لو كان كلما استعصت عليه محلة تركها وذهب إلى غيرها لن يستقر به مقام، ولن يحقق شيئا وسيظل ينتقل من مكان لآخر دون جدوى؛ فغالبية الناس تظل فترة على المتابعة والتقليد لما وجدوا عليه آباءهم ولا يتحولون عنه إلا بعد جهد جهيد ومتابعة ومثابرة، لذلك ظل ﷺ مثابرا على المقام في مكة يواصل الدعوة بكل ما أمكنه من سبيل، ولم يخرج منها إلا مراعاة لمصلحة الدعوة، كما بين ذلك بقوله عن مكة:" والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت"(١).

وترك الأوطان والهجرة ليس ضرورة محتومة في مسير الدعوات، في الماضي أو الحاضر والمستقبل، فلا ينبغي على كل داعية أن يهاجر كما هاجر رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإنما الخروج والهجرة وسيلة يُلجأ إليها عند الحاجة فلو أن أهل مكة استجابوا للدعوة لم يكن هناك ما يسوغ الخروج، ولو خرجوا لكان تفريطا، لذا قال ﷺ " ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت "

(١) المستدرك ٣/ ٨ رقم " ٤٢٧٠" كتاب الهجرة، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين، مسند البزار ٢ / ٣٩٢، رقم "٧٨٧٤" مسند أبي هريرة.

الخاتمة

بحمد الله تعالى وعونه تم هذا البحث، الذي بيّن ما يلي:

- أن صاحب الدعوة الأول ﷺ واجه الشدائد والمصاعب ولم يتوقف عن التبليغ ولم ييأس أو يستبطئ النصر.

- أبانت الدراسة أهمية تيقظ الدعاة لمكر أعداء الدعوة، واتخاذ التدابير الواقية تجاهها، والاستفادة من قوانين المجتمع وأعرافه، وأهمية دراسة بيئة الدعوة في كل زمان ومكان.

- وأهمية التأني والتدرج، في تبليغ الدعوة، وأخذ المدعوين بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

- أوضح أن الدعوة تتقدم باصطفاء العناصر الفاعلة المؤثرة، وتربيتها تربية صحيحة بكل نواحيها العقدية، والروحية، والفكرية . اتخذ ﷺ ما استطاع من وسائل لمواجهة المعارضة، مما يوجب على الدعاة أن يسلكوا ذات النهج دون كلل أو ملل حتى تتم رسالة الله للعالمين.

- أبانت الدراسة أبرز صور العداء التي واجهتها الدعوة، ولا يملك دعاة العصر سوى تأكيد أن اللاحق تابع للسابق وأن حيل أعداء الدعوة تكاد تكون واحدة في كل العصور، والأشخاص مختلفون.

- كان لابتلاء المسلمين - رغم قسوته - إيجابيات منها: ترابط المسلمين وتكاتفهم، وإظهار تعاطف بعض المشركين معهم، مما يدل على أن الخير لا يعدم، وأن في المحن منح تظهر معادن الناس.

- أظهر أهمية الثبات على دين الله، والتضحية من أجله، وأن طريق الدعوة ليس مفروشا بالورد والرياحين، وإنما تضحية تستوجب الغالي والنفيس حتى تبلغ دعوة الله.

- كما أنه يرد على دعاة أن الإسلام انتصر بالسيف، فالواقع يثبت أنه انتصر على السيف.

- واجب على الدعاة طمأنة الناس وبث الأمل فيهم فنصر الله قادم ودينه منتصر، والمهمة الأخذ بالأسباب والنتائج بيده سبحانه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

- السلوك المطابق لمبادئ الدعوة، مع المؤانسة والوداد والصفح الجميل، من أبرز معالم الإسلام ومزاياه التي تساعد على نشر الدعوة.

المصادر والمراجع

١. أسباب النزول الواحدي النيسابوري، دار إحياء الكتاب العربي ط الأولى.
٢. الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الجيل بيروت ط الأولى ١٤١٢هـ، تحقيق علي محمد البجاوي.
٣. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة بيروت طبعة سنة ١٤٠٠هـ.
٤. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى.
٥. تاج العروس من جواهر القاموس محمّد بن محمّد الحسيني، الزَّبيدي، مجموعة محققين، دار الهداية.
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م.
٧. التعريفات علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ تحقيق: إبراهيم الابياري.
٨. تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٩. جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط مكتبة الحلواني - مكتبة دار البيان الطبعة الأولى.
١٠. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م.
١١. الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ م.
١٢. الحرب النفسية د. فهمي النجار، دار الفضيلة - الرياض - السعودية.
١٣. الخصائص الكبرى جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٤. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.
١٥. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، دار الفكر– بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
١٦. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، دار الباز- مكة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
١٧. سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، محمد عزة دروزة، المكتبة العصرية صيدا- بيروت بدون.
١٨. السيرة النبوية عبد الملك بن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل١٤١١هـ بيروت.

١٩. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث علي محمد الصلابي الدار الليبية ط الأولى.
٢٠. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت الثالثة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
٢١. صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية - عمان – الأردن - الأولى.
٢٢. صحيح مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري دار الجيل – دار الأفاق الجديدة، بيروت.
٢٣. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر - بيروت.
٢٤. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار القلم – دمشق ط السابعة ١٩٩٨م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
٢٥. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني- صفوة السقا، مؤسسة الرسالة - ط الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٢٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت ط الأولى.
٢٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر- بيروت ١٤١٢هـ.
٢٨. محنة المسلمين في العهد المكي د. سليمان بن عبد الله السويكت مكتبة التوبة، ط الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٢٩. مختصر السيرة، محمد بن عبدالوهاب، مطابع الرياض.
٣٠. المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى ١٤١١ ه- ١٩٩٠م، مصطفى عبد القادر عطا.
٣١. مصنف ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، تحقيق محمد عوامة، الدار السلفية الهندية القديمة.
٣٢. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، تحقيق مجمع اللغة العربية.
٣٣. المنهج الحركي للسيرة، منير محمد الغضبان، دار المنار الأردن الأولى.
٣٤. منهج النبي في حماية الدعوة، الطيب برغوث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

المحتويات

تمهيـــــد ٥٨
الفصل الأول: أسباب معارضة الدعوة في العهد المكي ٦١
المبحث الأول: العناد والعصبية: ٦١
المبحث الثاني: اتباع الهوى: ٦١
المبحث الثالث: محاكاة السابقين وتقليدهم: ٦٢
المبحث الرابع: الانقياد للسادة والزعماء: ٦٢
المبحث الخامس: حب الزعامة والرياسة: ٦٣
المبحث السادس: الكبر والغرور: ٦٤
الفصل الثاني: طرق معارضة الدعوة في العهد المكي ٦٥
المبحث الأول: السخرية والاستهزاء: ٦٥
المبحث الثاني: محاولة صد الناس وصرفهم عن النبي وأصحابه: ٦٧
المبحث الثالث: الجدل العقيم والدعايات الكاذبة: ٦٨
المبحث الرابع: طلب المعجزات المحسوسة: ٧٠
المبحث الخامس: استخـدام ســـلاح الفـتنة: ٧١
المبحث السادس: المساومات والإغراءات: ٧٣
المبحث السابع: أسلوب الضغط الاجتماعي: ٧٤
المبحث الثامن: مطاردة الفارين بدينهم خارج مكة: ٧٦
المبحث التاسع: الحصار الشامل: ٧٧
المبحث العاشر: صد المؤمنين عن العبادة والطاعة: ٧٧
المبحث الحادي عشر: محاولة التخلص من صاحب الرسالة : ٧٨
الفصل الثالث: سبل مـواجهة المعارضة والحد منها ٨٠
المبحث الأول: سبل مواجهة أعداء الدعوة: ٨٠
المطلب الأول: العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان: ٨٠
المطلب الثاني: التأني والتدرج: ٨١
المطلب الثالث: الدعوة إلى تحرير العقل من التعطل: ٨٢
المطلب الرابع: التعامل بأخلاقية الدعوة: ٨٤
المطلب الخامس: العمل على حد ضغوط القوة المضادة ٨٦

المطلب السادس: دحض حجج المعارضين وتصحيحها:.....٨٧
المطلب السابع: الثبات والاستعصاء على المساومة والاستدراج ٨٨
المطلب الثامن: الدعاء لتدخل العناية الإلهية: ٨٩
المبحث الثاني: سبل المحافظة على الدعوة والمؤمنين بها: ٩٠
المطلب الأول: اصطفاء المدعوين وكسب الأنصار: ٩٠
المطلب الثاني: اتخاذ التدابير الوقائية: ٩١
المطلب الثالث: التربية الروحية والسمو بالنفس البشرية: ٩٢
المطلب الرابع: الدعوة إلى ضبط النفس والتحمل حتى يتم البلاغ: ٩٣
المطلب الخامس: إرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية: ٩٥
المطلب السادس: الاستفادة من قوانين المجتمع وأعرافه: ٩٥
المطلب السابع: طمأنة الأتباع ولفت الأنظار إلى الاستحلاف: ٩٧
المطلب الثامن: العمل على تقوية رابطة الصف المسلم: ٩٩
المطلب التاسع: البحث عن وطن بديل للدعوة: ١٠٠
الخاتمة ١٠٤
المصادر والمراجع ١٠٥